الدكتور أحمد زياد محبك

عريشة الياسمين

قصص قصيرة

دار القلم العربي

العنوان: عريشة الياسمين
النوع: قصص قصيرة
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
الهاتف الجوال والواتس: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
منشورات دار القلم العربي ـ حلب
الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م

كيف لي أن أراك؟

أخرج لا لأنتظرك، وإنما لأبحث عنك، فأنا أعرف أنك لن تأتي. أخرج من بيتي كالعادة عندما أكون على موعد معك، الساعة السابعة، ولكنّي هذه المرة أخرج، وأنا أدرك أنك لن تأتي، ومع ذلك أخرج.

بالأمس قلت لي وداعاً، وأنا قلت لك بل إلى اللقاء، كانت يدك في يدي، حين قلت لي: "فلنفكر جدّيّاً بالفراق"، ضعت على يدك وهمست لك: "بل سنلتقي دائماً وإلى الأبد".

كأنني حين ودّعتك لم أسمع كلامك، أو لم أفهمه، ألم أصدقه، بعد ساعة، أو ساعتين، أدركت حقيقة ما قلت، إذن سأفقدك، هل أفقدك، حقاً لن نلتقي، لا أصدق، لا، لا، لن أفقدك، لن أتخلى عنك، لن أسمح لك بأن تقرِّري الفراق.

قلت لك أراك غداً الساعة السابعة كعادتنا، قلت لي سأتصل بالهاتف لتأكيد الموعد، وطوال اليوم لم تتصلي.

وهاأنذا أخرج من بيتي قبيل السابعة، أحث الخطا في الطريق نفسها التي كنت أسير فيها إليك، أنظر إلى ساعة يدي، يجب أن أصل قبل السابعة بدقائق، هل أراك سبقتني إلى اللقاء، هل أجدك فالركن المألوف من الحديقة التي نلتقي فيها كل مساء عند الغروب.

أجد الطريق طويلة هذه المرة، خطواتي العجلى لا تكاد تقطع منها شيئاً، هل أراكِ قادمة من الطرف الآخر للشارع، فلنلتقي عند باب الحديقة، كما حدث مرّة، كنت أحثُّ الخطا، فرأيتك عند نهاية

الشارع قادمة إليّ، خطاي طارت بي إليك، أحسست أنك تقفزين إلي، عند باب الحديقة التقينا، وصلنا إليها معاً، في آن واحد.

واليوم، أحس أني آتي إلى الموعد وحدي، طوال النهار كنت أحس بفقدك، لا، لن أفقدك، أكاد لا أصدق، عشرات المرات رن جرس الهاتف، وفي كل مرة أحس أن الرنين ليس رنين اتصالك، حين يرن الهاتف لاتصالك أنت أحس له وقعاً خاصاً متميزاً، تمتد إليه يدي، تلتقط السماعة، تحملها، ويتسرّب إليّ صوتك الدافئ، يغمرني شذاه، ينقلني خارج المكتب والدائرة وأنسى المراجعين والملفات والأوراق كلها.

كنت أتمنى طوال النهار اتصالك، لأكلمك كثيراً، كنت عازماً هذه المرة على الثرثرة معك، والتحدث طويلاً، ولكن.

ها هو ذا حارس الحديقة يراني على المقعد وحدي، أعرف أنك لن تأتي، سيطول انتظاري، سيطول، سأنتظرك، حتى التاسعة، وسيشفق الحارس بي، أو يسخر مني.

سأبقى أنتظرك، لن أضجر، ولن أمل، سوف تأتين، ها هو ذا مدخل الحديقة أمامي، سأراك تدخلين، وأنهض إليك، أسير نحوك، أختصر المسافة بيننا، بخطواتي العجلى، وأصل إليك، أشد على يدك، أودّ لو أضمّك إلى صدري، أقبلك، أشدك إليَّ بقوة.

ولكن، لماذا لم تتصلي بي اليوم، لماذا قررت الفراق؟!

نصف ساعة مرت، ونصف ساعة أخرى سوف تمر، ساعتان، ثلاث، الشمس بدأت تميل للغروب، الكون يكتسي لون الكآبة والقهر، أعرف أنك لن تأتي، ما جئت لأنتظرك، جئت للبحث عنك.

كنا نغادر معاً باب الحديقة، يدك في يدي، وهاأنذا أغادر الحديقة وحدي، الرصيف الذي نسير عليه معاً كل مساء، وقت الغروب، أسير عليه وحدي، مصابيح السيارات أحسها مشاعل نار تحرق عيوني، وكنا نحسها متلألئة جميلة.

سأسير في كل الشوارع التي سرنا فيها من قبل معاً، أسير فيها وحدي، يداي كلتاهما تضربان في الهواء، كانت يدي تمسك يدك، تشد عليها، يدي تحمل يدك، أحس فيها نبضك، دفئك، والآن، وحدي، وحدي.

هل هذه هي أنت؟! لا يعقل؟! الساعة الآن تتجاوز الثامنة؟! هل جئت إلى الموعد بعد ساعة؟! لا يعقل، السيارة لم تنعطف في الشارع المؤدي إلى الحديقة، لو انعطفت لقلت هي أنت، ولرجعت إلى الحديقة، ولكن لا، هي شبيهة بك، شعرها الأشقر مثل شعرك، وجلستها في المقعد الخلفي من السيارة، قرب النافذة، مثل جلستك، ولكن لا، ليست أنت.

كل هذه الطرق سرنا فيها معاً، في الصيف والشتاء، تحت المطر والثلج، تحت الحر والوهج، الشمس أدفأتنا معاً، والقمر أطل علينا معاً، تحت هذه الشجرة وقفنا مرة، هنا ودعتك مساء، وقد خيّم الليل، كان المصباح ههنا مطفأً ملت عليك، وهممت بتقبيلك.

كيف قررت الفراق هكذا فجأة؟! ليتك أسأت إليّ مرة أو مرتين، ثم قررت الفراق، أو ليتني أسأت أنا إليك، ولكن، لا، لا أتوقع أن يسيء أحد منا إلى الآخر، ليتك وعدتني مرة ولم تأتي، ثم أظهرت شيئاً من الملل، ثم باعدت بين اللقاء واللقاء على مدى شهر أو

شهرين، ثم ليكن بعد ذلك الفراق، ولكن حتى لو فعلت ذلك، لا أظن أنني سأتقبل فكرة الفراق، لا لن نفترق.

هاأنذا أغذُّ الخطا في الطريق الصاعدة إلى بيتك، الطريق التي طالما سرنا فيها معاً، ويدك في يدي، أتنسّم شذاك، ونحن نتحدث، نصمت، أحس حين كنّا نصل إلى هذه الطريق، ما لي أقول: كنا، كأني فارقتك منذ دهر، أو كأنّ الفراق قد تمّ، لا، بالأمس صعدنا هذه الطريق معاً، وحين وصلنا إلى هذا المنعطف، أحسست أن يدك تذوب في يدي، كأن روحينا اتحدتا، دائماً في اللحظات الأخيرة من اللقاء يفنى كل منّا في الآخر، نبطئ في خطواتنا، نمشي الهوينى، نلف حول المباني، ندور في المنعطفات، نلتقط الياسمين من عرائش متناثرة على السياج.

يا للفاجعة، النوافذ مغلقة، والشرفة خالية، ولا ضوء، حتى لا بصيص من ضوء، حتى البلبل الذي كنت أراه دائماً معلقاً في الشرفة، لا أراه الآن، ليس سوى العتمة والصمت، ماذا حلّ في العالم، أهكذا يقفر فجأة ويصبح يباباً، لا صوت ولا ضوء ولا حركة، ولا حياة؟!

ماذا أفعل؟! هل أصعد درج البناء، هل أكتب اسمك الذي منحتك إياه على جدران المدخل على الأدراج، على باب الدار، أمل أمل أمل.

هاأنذا أنحدر في الطريق التي صعدت فيها إليك، أؤوب خائباً، أطل على المدينة التي طالما أطللت عليها معك، فرأيت أضواءها تتلألأ مثل ألق عينك، تعيسة أنت أيتها المدينة النائمة، أضواؤك

مريضة، وسماؤك قاحلة، طالما آنستني شوارعك، خدعتني أضواؤك، ضللتني، هاأنذا أطل عليك وحدي، فارغ القلب، عاري اليد، وحيداً، لا صديقة إلى جانبي، ولا صوت ولا دفء ولا همس، بائسة أنت أيتها البيوت المتلاصقة، مضللة أنت أيتها الطرق الملتوية الملتفّة الخانقة، ثلاث ساعات وأنا ألوب فيك باحثاً عن صديقتي، وأخيراً تركتني محطماً، سللت من روحي أنسها، استعدت من أناملي كلَّ ما شربته من دفء وعبير.

ما تزال الطريق طويلة، وأنا أحس أنني سأراك فيها، مصادفة، سأراك، كل هؤلاء الناس خرجوا مساءً ليجوبوا في الطرقات، ليتنسّموا هواء الليل، ليل الصيف، الرصيف يمتلئ بهم، عشاق وعشاق، وأنا وحدي.

الطريق تستنزف خطواتي.

كيف لي أن أراك؟!

***

عريشة الياسمين

أستيقظ في الصباح الباكر، توقظني وسوسة ناعمة لسناء، وهي تسأل أمي:

"أين أحمد؟".

فتجيبها:

"**نائم**".

وأهب من سريري، أندفع إلى خزانة وراء الباب، أحمل مضاربي وريشتي، تنعشني برودة البلاط في أرض الغرفة، أضع في قدمي نعلاً خفيفاً، وفي جسمي تسري رعشة الصباح الباكر، أحس ببهجة وأنا أطير إلى فناء الدار، عابراً الإيوان، لأرى سناء عند حافة البركة، تحت عريشة الياسمين، والعصافير تغزو العريشة، بعضها يحاول النزول إلى البركة، وبعضها يحوم حول سناء، ثم يطير إلى فوق.

تراني فتسرع إليّ، وأركض نحوها:

"**انظري يا سناء، بابا اشترى لي مضارب وريشة مثل مضاربك، سنلعب معاً**".

وتناديني أمي:

"**تعال يا أحمد، سلم على جارتنا أم سناء**".

وألتفت ليها محيياً ومرحباً.

أمي وجارتنا أم سناء تقعدان، بعضهما بجوار بعض، على أريكة في صدر الفناء، حيث كانت أمي ليلة أمس تقعد وأبي، وأمامهما صحن بلوري مملوء بالياسمين، وهما ترشفان معاً قهوة الصباح الحلوة، ومن حولهما أصص القرنفل والفل.

وأتنسّم شذى السمن العربي يعبق في الدار متسرّباً من المطبخ، ليمازج عبق القهوة، فأسأل أمي:

"**ما فطورنا هذا الصباح يا أمي؟**".

وتجيبيني:

"**المامونية، ما تزال على النار**".

وأقول لها:

"**سألعب مع سناء بالريشة إلى أن تنضج**".

صباح جميل، المامونية[١] هي أشهى فطور إلى نفسي، أتمنى لو كان فطوري منها كل يوم، على الرغم من إحساسي بشيء من الدوار ووجع الرأس بعد تناولها، أمي دائماً تقول لي: تناول قطعة من الجبن قبل المامونية، حتى لا يزعجك الحلو. اليوم سأفطر مع سناء، سآكل جانب المامونية قطع الجبن، سأقدِّم إلى سناء قطعة جبن كبيرة.

***

البركة بيني وبين سناء، وعريشة الياسمين فوقنا، والريشة تتطاير مثل العصفور، والماء يتقاذف من البركة إلى أعلى، ثم يهمي على وجه الماء في رفرفة ناعمة، وسناء تركض من طرف إلى طرف، تلاحق الريشة، وعيناها تتابعان طيرانها في شغف، ويداها الناعمتان تضربان في نزق.

"**لا ترفعها إلى فوق يا أحمد**".

---

١ – المامونية طعام للفطور، تشتهر به مدينة حلب، يصنع من السميد والسمن والسكّر.

"**لا توقعيها على الأرض يا سناء**".

"**لا تضرب الريشة بقوة، حتى لا تذهب بعيداً**".

"**وأنت اضربيها بقوّة، حتى لا تسقط في البركة**".

تتورّد وجنتاها، خصلات شعرها تتناثر على كتفيها، صوتها الناعم يقطعه لُهاثها، ولوجها في الصباح أَلَقٌ أخّاذ، والعصافير في العريشة فوقنا تحوم وتزقزق، وتدفع الريشة بيدها الناعمة، الدفعة هادئة، والريشة لا تبتعد كثيراً، وتكاد تقع في البركة، وأسرع إلى الريشة لأدفعها بالمضرب، وإذا سناء قد أسرعت مثلي، ونلتقي عند البركة، جسمانا يلتقيان معاً، ووجهانا المرفوعان إلى فوق يلتقيان، والريشة تسقط بيننا، وتطوِّقني يداها، وأطوِّقها بيدي، للحظة واحدة، ونحن نضحك، ونضحك، ثم نقعد على حافّة البركة، نلتقط أنفاسنا، ويدي على يدها، "**تعال نبدِّل مواضعنا**".

ما أزال أحسّ بسخونة جسمها، وأتنشّق شذاها، وأشعر بالسرور لوقوفي في الموضع الذي كانت فيه، أحسّ أنَّ له تميزاً خاصّاً.

أضرب الريشة، أحاول تلقّيها منها وردَّها، ولكنَّها تسقط منّي. كم أودّ لو نلتقي ثانيةً.

أضرب الريشة بقوَّة، أضربها بهدوء، تسقط منّي الريشة عدّة مرّات، ولا نلتقي.

"**ما بك يا أحمد؟! لماذا لا تلعب بصورة جيِّدة؟! اضربها بقوّة**".

وأضرب الريشة، أدفعها بكلِّ ما في يدي من قلق، وما في جسمي من إحساس مبهم غامض، أضربها فتطير إلى أعلى، فأعلى، لتخترق

أغصان الياسمين الناعمة، وتتساقط ياسمينات كثيرةٌ فوق وجهينا، ونحن ننظر إلى الريشة وقد علقت في الأغصان.

***

وأسأل أمي:

"**هل تسمحين لي بإحضار السلّم لإنزال الريشة؟**".

"**لا ضرورة للسلم، هناك عود خشبي طويل في المطبخ، أحضره وأنزل به الريشة**".

وأسرع إلى المطبخ، ينفحني عبق السمن العربي والسكَّر، أحمل العود الخشبي وأخرج.

الريشة ما تزال بين الغصون، أنا وسناء نبحث عنها، تدنو منِّي وأدنو منها، أتنشَّق شذاها وأنا أرفع العود إلى فوق، أتمنى لهذا البحث أن يدوم.

ويخفق قلبي لصوت قرعٍ عنيف على الباب، وتقول لي أمي:

"**اترك العصا يا أحمد، وافتح الباب**".

وأسرع إلى الباب، أفتحه، وإذا ابن خالتي قاسم، وتبادره أمّي باللوم:

"**كم أوصيك يا قاسم ألاّ تقرع الباب بقوّة؟**".

ويجيبها بغلظة: "**داركم يا خالتي واسعة، وأخشى ألاّ تسمعوا؟**".

ثم تسأله: "**ماذا تريد يا قاسم؟**".

"**أمّي تدعوك إلى زيارتها اليوم مساءً**".

ثم يلتقط مضربي وقد وضعته على حافّة البركة، ويلتفت إليَّ ليقول لي بصوتٍ خشن:

"**هاتِ الريشة يا أحمد، أنا سألعب مع سناء**".

فأشير إلى العريشة وأقول له:

"**الريشة فوق، علقت بين الأغصان**".

ويرفع رأسه إلى فوق، ثم يقذف بالمضرب أغصان العريشة، ويقع المضرب على الأرض، وتقع في إثره الريشة، وتصيح به أمِّي:

"**يا قاسم، لا تكسر مضارب أحمد**".

فيجيبها:

"**لا تخافي يا خالتي، أنا سألعب دورين مع سناء**".

ثم يلتفت إلى سناء ويخاطبها بصوتٍ خشن:

"**تعالي إلى هذا الطرف، لنلعب هنا تحت العريشة**".

ويضرب الريشة، فتحلِّق عالياً، ثم تسقط على السطح غائبة عن الأنظار، ويلتفت إلى أمِّي ليقول لها:

"**أمّي أوصتني ألاّ أتأخر، أنا ذاهب يا خالتي**".

ثم يمضي ويصفق باب الدار وراءه بقوّة، أنا لا أحب ابن خالتي قاسم، هو أكبر منّي بثلاث سنوات، رسب في امتحان الشهادة الإعدادية: قال لي:

"**امتحان الشهادة الإعدادية صعب، وأنت أيضاً لن تنجح مثلي، غداً سوف ترى**".

شعره أسود، ووجه عريض، وعيناه صغيرتان، وصوته خشن، وفوق شفته ينمو شعر. قال سيتركه حتى يصبح له شاربان كبيران، وهو دائماً يقول لي: أنا أكبر منك وأقوى منك.

مرّةً كسر زجاج النافذة بحجر رماه.

ومرّةً زارنا في الربيع وكان عندي عصفور صغير، سقط من غصن شجرة التوت، كنت أربيه وأطعمه بيدي، وأسقيه بفمي، لَمّا رأى العصفور معي خطفه من يدي وقال: "**هات، سنشويه ونأكله**"، ثم فصل رأسه عن جسده.

ومرّةً قال لي:

"**أنا أكبر منك، وسأتزوّج قبلك. أمي ستخطب لي ابنة جيرانكم سناء، أنت لا تعرف، أنا أحبّها**".

سناء أصغر منّي، هي في الصف الرابع، وأنا في الصف السادس، أتمنّى لو كانت في عمري، وأتمنّى لو كنّا، أنا وهي، في الصف الثالث الإعدادي، يجب علي أن أنتظر ثلاث سنوات حتى أصبح في عمر قاسم، وعندئذ أستطيع أن أضربه، وسأقول له:

"**لا، الشهادة الإعدادية ليست صعبة، ولكن أنت كسول**".

أنا لا أحب قاسم، أنا أحبّ سناء.

***

"**ما بك يا أحمد؟**".

وأتنبّه إلى صوت سناء الناعم وهي تنظر إليّ، وأنا عند حافّة البركة، فلا أعرف كيف أجيبها، فتقول:

"**عندنا ريشة في البيت، سأذهب لإحضارها**".

وتعدو نحو باب الدار، فتسألها أمُّها: "**إلى أين أنتِ ذاهبةٌ يا سناء؟!**".

فتجيبها:

"**لإحضار ريشتي**".

فتقول لها أمُّها:

"**يا سناء، أنا خبّأتها في الرف الثالث في الخزانة، وراء سريرك، انتبهي حتى لا تقعي**".

وتلتفت إلى أمِّها لتقول لها:

"**لا تخافي يا أمّي**".

ثم تمسك بيدي وتقول لي:

"**تعالَ معي يا أحمد لتساعدني**".

***

قلبي يدقّ بقوة، وأطراف أصابعي ترتعش.

ليست هذه أوّل مرة أدخل فيها غرفة سناء، ولكن لست أدري لِماذا أُحِسُّ هذه المرة بشيء غريب، شيء ما في داخلي لا أعرف ما هو. أودُّ لو أقترب منها، لو يتكرَّر هذا الاقتراب الذي حدث فجأةً تحت عريشة الياسمين. أتمنّى لو يطول، لو يدوم.

"**انتظري يا سناء، أنا سأدوس على طرف السرير لإحضار الريشة، فأنا أطول منك**".

"**لا يا أحمد، أنا سأدوس على طرف السرير وعلى حافة الرفّ الثاني. حقاً أنت أطول منّي ولكنّي أخفُّ منك**".

"**إذاً، يجب أن أساعدك**".

وتدوس على طرف السرير، تضع يدها على الرفّ الثاني، وتشدُّ قبضتها الصغيرة على حافّة الرفّ الثالث، وتشدُّ جسمها إلى فوق، فلا تقوى. أدفعها في جذعها نحو الأعلى، وتمدُّ يدها اليسرى إلى عمق

الخزانة، وتتعب يدها من التشبُّث بالرف، فتفلت، وتقع، وأقع معها على السرير.

بين الفزع والفرح، بين الغبطة والخوف، أحسُّ بها فوقي، وجسمها الدافئ فوق جسمي، ووجهها قبالة وجهي، وأنفاسها الحلوة تغمرني، فمها الناعم تترقرق فيه ضحكة نديّة، ونحن نضحك ونضحك.

أشدُّها إليّ، شفتاها تنطبقان على فمي، أحسُّ بطعمٍ حلوٍ في فمي.

وتنهض لاهثةً، ترفع شعرها إلى الوراء وهي تقول لي:

"**لِماذا قبّلتني؟!**".

وأجيبها:

"**وأنتِ لِماذا وقعتِ فوقي**".

ثم تعدو مسرعةً إلى دارها وفي يدها الريشة، وأعدو في إثرها.

***

ليلة أمس كان أبي وأمي يقعدان في الموضع الذي تقعد فيه اليوم أمّي وجارتنا أمُّ سناء.

أبي يستند إلى وسادة من ريش النعام، وأمامه النارجيلة، ممشوقة القوام، ناحلة، والماء يضجُّ فيها ويقرقر، والنار في أعلاها، تبصُّ وتتوهّج، وعبق التبغ ينشر في الجوِّ سحاباتٍ ناعمةً، وأنا أعدو بين البركة والنارجيلة، ألملم الياسمينات التي تهمي من العريشة، وأضعها في صحن بلوريٍّ أمام أبي بجوار النارجيلة، والنعاس يداعب عيوني وأنا أغالبه.

وينفح الجوَّ عبقٌ متميَّزٌ، وتدخل أمِّي حاملةً القوة المرّة، وهي ترشق ياسمينات بيضاء في شعرها فوق أذنها، وتصبُّ لأبي فنجانه، وهي تخطر في ثوبٍ لا ترتديه إلا في المساء، أمس، رقيق، وفي قدميها قبقاب خشبيٌّ عالٍ، يمنحها طولاً رشيقاً، وتترك القبقاب بعيداً، ثم تقعد إلى جانب وسادة غير بعيدة عن أبي. وتمرُّ هنيّة صمت لا يُسمع فيها غير قرقرة النارجيلة، ورفرفة الماء المتقاذف من النافورة وهو يتساقط على سطح الماء في البركة.

وتتكلَّم أمّي، فتقول لأبي:

"**جارتنا أم سناء تهديك السلام**".

فيجيبها بهدوء وهو ينفث دخان النارجيلة:

"**سلّمها الله**".

وتتشجَّع أمّي فتقول له:

"**هناك بعض الأغصان في عريشة الياسمين تسلَّقت الجدار ووصلت إلى دارها، وهي ترجوك في أن تأذن لها في مدِّها إلى دارها لتصنع منها عريشةً كعريشتنا**".

ويجيبها أبي:

"**لا بأس**".

وتمرُّ هنيَّة صمتٍ يقول بعدها:

"**وأخبريها أنِّي سأصنع لها داروخاً[٢] في الشتاء القادم**".

---

٢ – الداروخ: غصن يُغرس من أوسطه في الأرض، حتى تصير له جذور، ثم يُقطع من الشجرة ليُزرع في مكان آخر.

وتتشجّع أمي ثانيةً فتضيف:

"**وهي سوف تهديك أصيص قرنفل أبيض**".

وأتثاءب وأنا أتابع ياسمينةً تهمي من العريشة إلى الأرض، وهي تدور، ناعمة، رقيقة، فيقول لي أبي:

"**هيّا إلى النوم يا أحمد**".

فأقول له:

"**لن أنام حتى يطلع القمر من بين أغصان الياسمين**".

فيقول لي:

"**اذهب إلى الفراش، وضع رأسك على الوسادة، ستراه يطلُّ عليك من الطاقة**".

كانت ليلة غريبة حقّاً، رأيت فيها أحلاماً كثيراً، لا أذكر منها شيئاً، ولكن لست أدري لِماذا تذكِّرني سناء الآن بليلة أمس.

نعست نعاساً شديداً وأنا أنظر إلى الطاقة، كنت مستلقياً في الفراش، والطاقة تحت السقف أمامي مباشرةً، كثيراً ما رأيت القمر يطلُّ منها بدراً قبل أن أنام. ولكن في تلك الليلة لم يطلَّ القمر، ولست أدري لعلَّه أطلّ.

كان في الطاقة يمامة، ترقد في عشِّها فوق البيض، طالما راقبتها وهي تحمل أعواد القشَّ الصغيرة لتصنع منها عشّاً. يمامة أليفة، بنيَّة اللون، ناعمة، في جيدها طوقٌ لطيف، كان إلفُها يساعد على نقل القشّ، وقد رأيته وهو يزقُّها في فمها، يطعمها كأنَّه يستخرج شيئاً ما في صدره ليدفعه إلى صدرها، عبر منقاريهما، وقد اتَّصل المنقاران بعضهما ببعض.

كنتُ في تلك الليلة أراها وحدها، ترقد فوق العش، وأنا أنتظر البدر، والنسمات الصيفية الناعمة تمسح وجهي، متسلسلةً من خلال النافذة المفتوحة على فناء الدار، فتنعشني، وإليَّ تتسرَّب رفرفات الماء في البركة، وقرقرات الماء في النارجيلة، فأحسُّ بالياسمينات وهي تهمي من العريشة، وأحسُّ بأبي وأمي ما زالا ساهرين معاً، فينفحني شذا الياسمين وعبق القهوة المرّة.

ومع إغفاءتي رأيت القمر يطلُّ من الطاقة من وراء اليمامة الراقدة فوق العش، ولست أدري لعلّي رأيت ذلك في الحلم؟

ولا أعرف لِماذا تذكِّرني سناء بذلك كلِّه؟ كأنَّها كانت معي تلتقط الياسمينات، أو تنتظر القمر؟ هل كانت تنتظر القمر مثلي؟

***

في الدهليز المؤدّي إلى فناء دارنا تقف سناء قبالتي فجأة، وهي ما تزال تمسك بالريشة في يدها، فأكاد ألتصق بها، ووجهها أمامي، تقول لي:

"**لا تقل لأمّك أنَّك قبّلتني**".

وأجد فمها أمامي، فأقبِّلها، ثم أقول لها:

"**لا تخافي، لن أخبرها**".

ونمضي إلى فناء الدار معاً.

تناديها أمي:

"**هيّا إلى الطعام**".

تحت العريشة وضعت أمّي أطباق المامونية والجبن، والخبز، وإبريق الشاي، والكؤوس، على ملاءة بسطتها فوق بلاط الفناء،

وصفّت من حولها الوسائد، وقعدت هي وأمّ سناء متقابلين، وقعدتُ أنا وسناء في موضعينا متقابلَين أيضاً.

"**يا خالتي أم سناء، سأخبرك بشيء مهمّ**".

وتسألني:

"**ما هو؟**".

وتنظر إليَّ سناء في خوفٍ وإشفاق، فأقول:

"**وافق أبي على مدّ أغصان الياسمين إلى داركم**".

فتجيبني:

"**وأنا سأهديكم أصيص قرنفل أبيض**".

وأضيف:

"**وأنا سأصنع لكِ العريشة بنفسي، وجدت عدّة أعواد خشبية عندنا في المطبخ**".

ثمَّ أمدُّ يدي بالملعقة إلى المامونية، فتقول لي أمّي:

"**لا تنسَ العادة يا أحمد، يجب أن تأكل قطعة جبن قبل المامونية، حتى لا يؤثِّر فيك الحلو وتحسّ بدوار**".

وتجمد يدي وأنا أمسك الملعقة، ويتحلَّب في فمي طعمٌ حلوٌ وكأنَّ سناء تطبق بشفتيها على فمي مرّة أخرى.

وأرفع رأسي إلى أمي وأقول لها:

"**لا تخافي يا أمي، كبرت، وما عاد الحلو يزعجني**".

وأصمت قليلاً ثم أضيف:

"**وعلى كل حال، قطعة الجبن لا جدوى منها الآن، لأنَّ سناء قدّمت لي في غرفتها قطعة سكّر**".

ثم أدفع بالملعقة مملوءة إلى فمي وأنظر إلى سناء.

وتهمي من العريشة ياسمينة بيضاء، تحطُّ على شعر سناء، ثم تقع في جحرها، وتمتدُّ إليها يدي فألتقطها، ثم أقول لسناء:

"**ضعيها في شعرك يا سناء، فوق أذنك، مثلما تفعل أمي**".

وأنظر إلى وجهها، ثم أتذكَّر البدر.

***

بديعة

وأنا ماضٍ في الزقاق، عائد من السوق إلى البيت، أسمع جلبةً ورائي وضجيجاً، وألتفت، وإذا عربة تقف في مدخل الزقاق، محمَّلة بأثاث متراكم بعضه فوق بعض، بتزاحم شديد، وكأنَّما أريد لأثاث المنزل أن يُنقل كلُّه دفعةً واحدة.

ويدفعني الفضول، فأرجع إلى مدخل الزقاق، فأرى رجلين يهبطان من العربة، ويأخذان في فكِّ الحبال عن الأثاث، فأقف أتأمَّلها وفي يدي كيس صغير، فيه بضع قطع من الصابون كانت أمّي قد أرسلتني لشرائها من السوق.

وأدرك على الفور أنَّ الدار المقابلة لدارنا سيشغلها مستأجر جديد، فهي خالية منذ أكثر من شهر، منذ انتهاء العام الدراسي، ورحيل الطلبة الذين كانوا يشغلون تلك الدار.

أمّي كانت تتذمّر كثيراً من الطلبة، فهم يرمون أكياس القمامة من النافذة العالية المطلَّة على الزقاق المواجه لباب دارنا، والمذياع لا يفتر عندهم ولا يهدأ، بصوت جهير، حتى الفجر، ودائماً تعبِّر عن تمنِّيها أن تسكن الدار أسرة، لتقيم معها صلة جوار.

وأنا مستند إلى الجدار، أتأمل الرجلين يفكّان الحبال، أرى رجلاً ثالثاً طويل القامة، يقترب منهما، ويشير إليهما بإنزال الخزانة الخشبية أولاً. ويحملها الرجلان، ويمضيان بها في الزقاق.

ويلتفت الرجل إليّ فجأة، ويسألني:

"**أنت من هذا الزقاق؟**".

"**نعم**".

"**وهل تعرف دار الحاج عبيد؟**".

"**نعم، داره مقابلة لدارنا، وكان يؤجِّرها لطلبة**".

وبسرعة خاطفة تمتدُّ يده إلى كرسيٍّ محشور بين الأثاث، يسحبه بقوّة، ثم يناولني إيّاه قائلاً :

"**هيّا أوصل هذا الكرسي إلى الدار بسرعة، أنا جاركم الجديد**".

وأمضي في الزقاق، يتقدَّمني الحمّالان بحملهما الثقيل، وهما يتعثَّران فوق بلاط الزقاق المفلطح، والشمس المائلة إلى الغروب تلقي على الزقاق ظلاً كئيباً للجدران العتيقة.

الخزانة تسدُّ منفذ الزقاق الضيِّق، الكرسي يضغط فوق رأسي، وأنا أقبض على مسنده بقوّة حتى لا يقع. أتمنّى لو قلت للرجل: "**لا**"، لهجته الآمرة تقهرني، أذكراه فأزداد استياءً منه، ومن صوته، ومن قامته المديدة.

هل أرمي الكرسي؟ هل أتركه يقع؟ لا أعرف لماذا كرهت هذا الرجل؟!

في الحقيقة، منذ الصباح وأنا أكره كلَّ شيء، لا أعرف لِماذا. ما أقسى الصيف والإجازة ! أين أنت الآن يا سناء؟ ماذا تفعلين عند عمَّتك؟ لِماذا سافرتِ؟! هذا باب دارها، أمرُّ به، ليتني أقرعه، ليتني أتسوَّر الدار وأدخل. أمّي تخبِّئ في خزانتها مفتاح الدار، أعطتها إيّاه جارتنا أم سناء قبل سفرها. كم أتمنّى لو دخلت إلى دارها، ولكن، ماذا سأفعل في الدار وحدي؟ ما سمعت من قبل أن لسناء عمّةً في الريف.

كان سفرها مفاجئاً، كم تمنَّيت لو سافرتُ معها.

ما أتعس الصيف وما أشقاه ! سافرت سناء، وبقيت وحدي، لا مدرسة، ولا أصدقاء، ليت الصيف ينقضي كي أعود إلى المدرسة وألتقي بأصدقائي، ولكن، سأنتقل العام القادم إلى الإعدادية. هل سينتقل معي أصدقائي القدامى؟

"**أحمد**".

يفجأني صوت أمي وهي تفتح باب الدار وتطلُّ عليَّ من شقِّ الباب، وتسأل:

"**ماذا تحمل يا أحمد؟**".

"**جار جديد يا أمي، أعطاني هذا الكرسي لأحمله إلى الدار**".

"**وأين الصابون؟**".

"**هنا، فوق المقعد**".

وأقترب منها، أنحني قليلاً، فترفع كيس الصابون عن مقعد الكرسي وهي تقول لي:

"**لا بأس، ساعد جارنا بحمل بعض الحاجات إذا شئت، كي تتسلّى**".

وتغلق الباب، وأمضي نحو دار جارنا الحاج عبيد.

دار الحاج عبيد لم أدخلها من قبل، ودائماً أحسُّ نحوها بالغموض، لا أعرف لماذا؟!

أنظر من بابها المفتوح أحياناً فأرى بهواً معتماً، ودرجاً، ولا أعرف تكوينها الداخلي. كلُّ ما أعرفه أن فيها غرفةً عاليةً تطلُّ على الزقاق، في مواجهة باب دارنا، وعندما أرقى السطح أرى تلك الغرفة من

خلال نافذتها المفتوحة، ولم يكن فيها سوى سرير وخزانة، وكان الطلبة دائماً يلطُّون من النافذة، وأنا أتذمَّر منهم ومن ضجيجهم.

والآن سأدخل دار الحاج عبيد، وسأرى ما بداخلها، أحسُّ بالوجل، لا أعرف لماذا. ثمّة شيء مبهم. البهو معتم، الرجلان اللذين حملا الخزانة يخرجان، يغادران الدار، أنا في البهو وحدي، الخزانة موضوعة في الزاوية، على يسارها يبدو لي ما يشبه المطبخ، وهو كما يبدو يقع تحت الغرفة التي تطلُّ نافذتها على الزقاق.

أتقدَّم بضع خطوات، ثمّة باب، أدفعه، فيغمرني نور الشمس الغاربة، وأخطو خطوة، وإذا أنا أمام درج. أتردد، وإذا صوتٌ يناديني:

"**تعال، اطلع إلى فوق، هاتِ الكرسي إلى هنا**".

وأرقى الدرج، فإذ بنفسي أمام سيِّدة مترهِّلة، حافية القدمين، وهي تغسل سطحاً صغيراً ينتهي عنده الدرج، ومواضع كثيرة من ثوبها المبلَّل لاصقة بجسدها المكتنِز.

"**قف هنا، انتظر**".

يعتريني شعور بالتقزُّز والاشمئزاز، لا أعرف لِماذا، من لهجتها الآمرة، من ثوبها النديان، من ترهُّلها، لا أعرف.

وتلتفت إلى الداخل وهي ما تزال تكنس الماء بمقشَّة في يدها وتنادي:

"**تعالي يا بديعة، خذي الكرسي من الولد**".

وأجدني ما أزال واقفاً كالمبهور، وأنا أحسُّ بالمفاجأة حيناً، وبالامتعاض حيناً آخر، فهي مثل زوجها، تأمرني بقسوة، وصوتها يقتحمني اقتحاماً، على غير ما ألفت من أبي وأمّي، فأنا ولدهما

الوحيد، وما خاطباني قطّ بمثل هذه اللهجة، ولا رأيتهما قط يتصرَّفان بمثل هذه الطريقة. ثمّة شيء غريب أحس به، وأنا أرى ثوبها النديان اللاصق بجسدها.

وتخرج إليَّ بديعة، وتمدُّ إليَّ يدها مصافحةً وهي تقول:

"**أهلاً يا أحمد، شكراً لحملك الكرسي**".

وتمدُّ يدها إلى الكرسي، ترفعه عن رأسي برشاقة، وأنا أرى إلى وجهها وعينيها وصدرها، أحسُّ بالذهول وهي تتكلَّم:

"**أنت جارنا؟ أنا عرفتك، رأيتك من النافذة وأمك تناديك. شكراً لك**".

وتضع الكرسي على الأرض، في موضع السطح الصغير الذي تغسله أمّها، وتلتفت إليَّ ثانيةً برشاقة، وهي ترذُّ خصلات شعرها الشقراء، وتقول:

"**أنا بديعة، أنا في الصف الثامن. وأنت؟**".

"**نجحت إلى السابع**".

أُبهت، أصمت، وأنا قبالتها، وتغمزني بعينيها، وتضيف:

"**غداً سأعطيك دروساً في القراءة، عندي كتب السابع كلَّها، غداً في الصباح سأنزل إليك، رأيت داركم من النافذة، دارك جميلة يا أحمد**".

وألتفت أمضي هابطاً على الدرج، وأنا لا أجد ما أقوله، وقبل أن أبلغ نهاية الدرج تناديني، فأقف، أرفع رأسي إليها، فتميل عليَّ مطلَّةً من فوق الدرابزين، وتقول:

"**سلِّم على أمِّك يا أحمد، ولا تنس، غداً سآتي إليكم**".

وأمضي في البهو المعتم، أخرج إلى الزقاق، أعدو إلى دارنا. أمي تفتح الباب وهي تسألني:

"**لِماذا لم تساعد الجيران؟**".

وأرد:

"**لا أعرف**".

وأمضي عدواً عبر فناء الدار إلى غرفتي.

حقيقةً، لماذا لم أساعدهم؟ هل أرجع؟ أتمنى أن أرجع، ولكن، لا، بديعة تطلُّ عليَّ من فوق الدرابزين، بوجهها الشبيه بوجه أمِّها. هي تتكلَّم بسرعة، وتعرفني، تراني من النافذة، وتعرف اسمي، تناديني:

"**أحمد**".

صوتها قويٌّ وحادّ، ولاذع، مثل صوت أبويها، هي تتقدَّمني بسنة، ولكنَّها أكبر مني، أكبر منّي بسنتين أو ثلاث، لا شكَّ أنَّها رسبت من قبل، بديعة ليست مثل سناء، أنا أكره بديعة. لا أعرف لماذا، لن أزورها أبداً، بل لن أستقبلها إذا زارتنا، ولن أسمح لها بأن تعلِّمني، سأطلب من أبي أن يشتري لي كتب الصف السابع، سأتعلَّم وحدي، بل لن أتعلم، نحن في إجازة، ولكن ما أتعسها من إجازة.

وأسمع طرقاً على الباب، فأعدو خلال الفناء، وأفتح الباب، وإذا وجه بديعة يتألَّق، وعيناها تبسمان، وهي تدلف إلى الدار قائلةً:

"**مرحباً يا أحمد**".

وألتفت، فإذا أمي ورائي، فأقول لها مرتبكاً:

"**أمي، هذه بديعة، جارتنا**".

وتمد بديعة يدها إلى أمي مبادرةً وهي تقول:

"**مرحباً يا خالتي، أمي تهديك السلام، وترجو أن تعيرينا علبة كبريت لإشعال الموقد، حاجاتنا موزَّعة، ولم نعثر فيها على علبة كبريت**".

وترد أمّي:

"**أهلاً بك، سأحضر لك علبة كبريت**".

وتمضي أمّي إلى المطبخ، بديعة تخطو داخل الدار، تتأمّل البركة، وشجرة التوت، وعريشة الياسمين، ثم تتكلَّم:

"**داركم جميلة جداً، يا الله، ما أجمل شجرة التوت ! هل نضج التوت يا أحمد؟**".

"**هذا أوانه**".

"**سأزوركم في الصباح الباكر مثلما وعدتك، وسأتناول عندكم التوت. يا إلهي، كم أحب التوت في الصباح**".

وتخرج أمي من المطبخ قائلة:

"**أهلاً بك وبأمك يا بديعة، تفضّلي، هذه علبة الكبريت**".

"**شكراً يا خالة، سأردّها لك**".

وتجيبها أمّي:

"**لا، أتركيها عندكم**".

"**شكراً مرة ثانية يا خالة**".

وتخرج وأنا أغلق الباب وراءها، تغمز لي بعينها، وتشير بيدها مودّعة، أو قائلة إلى اللقاء.

وأرجع إلى غرفتي، أحسُّ بالقهر، لا أعرف، أنا أكره بديعة، ولكن، أودّ لو أراها، أود لو تجيء في حاجة أخرى.

عتمة المساء تخيِّم، هو الوقت الذي يزداد فيه إحساسي بالاكتئاب، لا شيء يسلّيني، مللت المجلات والكتب والألعاب، ولا أعرف لِماذا. وبديعة شيء جديد، ليست مثل سناء. بديعة أحسُّ نحوها بالخوف، أو ما يشبه الخوف، بل أحس بالنفور منها، وأحياناً بالانجذاب والرعب في معرفتها. أما سناء، فأنا ألعب معها وأمازحها.

"**يا أحمد**".

أمّي تناديني من المطبخ، أسرع إليها، فتناولني صحناً فيه طعام، وهي تقول لي:

"**خذ هذا الصحن إلى جارتنا أم بديعة، من واجبنا تقديم عشاء الليلة إلى جيراننا الجدد**".

أتردد، أكاد أقول "**لا**"، هذه المرة أنا من سيقتحم على بديعة الدار، وأنا من سيبادر إلى الكلام معها. لن أحمل الطبق، ولكن، فجأة، أجدني أحمل الصحن وأمضي.

أفتح الباب، أرفع رأسي، وإذا بديعة في النافذة، أول مرة أهمس باسمها منادياً:

"**بديعة**".

فتسألني:

"**ما هذا؟**".

"**طعام لكم**".

وأمضي نحو درجات دارها، أصعد، وتفتح لي الباب، وصدرها يعلو ويهبط. جاءت من غير شكٍّ تعدو، أدخل البهو المعتم، يعتريني

إحساس غريب، أحسُّ أننا، أنا وهي، وحدنا معاً، أمدُّ إليها الصحن، فتتناوله منّي، يداها تلمسان يدَيّ، تهمس:

"**تفضّل، اطلع معي**".

فأردّ:

"**لا، لا**".

أوليها ظهري، وأمضي نحو الباب، فتسبقني إليه وهي تحمل الصحن بين يديها، تقف قبالتي، تسأل:

"**أحمد**".

"**نعم**".

"**هل تنام باكراً؟**".

"**لا**".

"**ما رأيك في الصعود إلى السطح؟**".

أنظر إليها وهي تقف قبالتي، أحس في عينيها تألقاً غريباً، أهمس:

"**سأفعل**".

وأخرج أعدو نحو البيت، وأنا أحسّ كأنني فراشة تطير، وعند العشاء لا أتناول سوى بضع لقيمات، وأنهض، أمي تسألني:

"**ما بك؟**".

وأجيبها:

"**أريد النوم باكراً**".

"**ووالدك؟ ألن تنتظره؟**".

"**أخشى أن يتأخر**".

"**لا بأس**".

وقبل مغادرتي الحجرة ألتفت إلى أمي قائلاً:

"**سأنام على السطح، هذه الليلة تبدو حارّة**".

وترد بعفويّة:

"**كما تشاء، ولكن خذ لحافاً، فالجو يبرد عند آخر الليل**".

وأرقى الدرج إلى السطح وأنا أحمل لحافاً ووسادة، وإذا بديعة في النافذة، أقف مسنداً جذعي إلى السور المحيط بالسطح قبالة بديعة، وفراغ الزقاق الهادئ بيننا، تهمس لي:

"**هل تحبُّ السهر مثلي**".

وأهز رأسي بالإيجاب، فتضيف:

"**لو ترى شجرة التوت من نافذتي، يا إلهي، كم هي جميلة !! بعد قليل سيظهر القمر، هناك عصافير وحمائم كثيرة تنام على أغصان الشجر، أحسُّ حركتها**".

وأعلِّق:

"**هناك حمامات بنيّة اللون مطوّقة**".

"**هل ستمسك لي واحدة؟!**".

"**لا يا بديعة، هي حمامات وادعة، لا يجوز إمساكها، إذا أمسكها أحد فقد يصاب بالعمى**".

"**لا تصدِّق**".

"**هكذا قالت جدّتي**".

وتصمت هنيهة ثم تضيف:

"آخ، كم أتمنّى لو أمسكت لي غداً في الصباح حمامة واحدة، سأضمّها إلى صدري، سأطعمها بفمي، وأمسح ريشها الناعم بيدي، هل تمسك لي واحدة؟".

وأسمع صوت باب الدار وقد أُغلق، وإذا والدي قد جاء، فيناديني، ثم يؤكّد لي ضرورة نومي في الداخل، فهو يخشى عليّ برد الصباح، وأطيعه، وأمضي إلى فراشي داخل الحجرة.

بديعة هناك، في غرفتها المطلّة على الزقاق، تتقلّب في فراشها من غير شك، مثلما أتقلّب، ما هذا اليوم العجيب؟

كم كنت كئيباً في الصباح؟ ليت بديعة جاءت منذ بداية الإجازة. ولكن، حتى الآن لا أعرف، لا تعجبني، ولا أرتاح إليها. لن أكلّمها غداً، لا أفهم ما تريد مني؟! ليست مثل سناء، ومع ذلك فأنا أتمنى لو لقيتها الآن، لو جاءت لأرى وجهها قبل أن أنام.

وأستيقظ في الصباح، يوقظني صوت أمي وهي تناديني من فناء الدار:

"هيا يا أحمد، استيقظ، تعال انظر من جاء".

من يجيئنا في الصباح؟ لا شكّ أنّها بديعة، جاءت في الصباح الباكر مثلما وعدت، لتناول التوت الذي تحبه كثيراً، أو لتعلّمني دروس الصف السابع، أنا أكرهها، لن أنهض، لقد سمعت حقيقةً صوت باب الدار وهو يغلق، سأعود إلى النوم، وأسمع صوت سناء، هل أنا في حلم؟ لا، هي سناء حقيقة، فأنهض وأعدو إلى فناء الدار،

"أهلاً يا سناء".

"أهلاً يا أحمد".

"**لماذا غبت كلَّ هذه المدة؟ لماذا يا سناء؟؟**".

تتكلَّم أمّي:

"**انظر يا أحمد ماذا أحضرت لك سناء هديّة !**".

وإذا زوجان من الحمام الأبيض، يخطران رشيقين في فناء الدار، يحومان حول البركة، تحت عريشة الياسمين، وينقران في الأرض، ثم يرفع كلٌّ منهما جيده الأتلع، ويتطلّع وعيناه تبرقان وتلمعان، وصدره يتألّق، وذيله مرفوع إلى فوق على شكل قوس، بل كأنّه تاج فضّي.

وأمدُّ يدي إلى سناء أصافحها:

"**شكراً، شكراً يا سناء**".

أحس يدها دافئة، أحس بها أول مرة، هذا الإحساس المفاجئ الراعش، أرى عينيها تتألقان، ووجهها الباسم وقد لوّحته الشمس وهو يتورّد، وأنا أقول لها:

"**كم تمنّيت لو أنّك لم تسافري !!**".

وتتكلَّم أمّي:

"**أنا ذاهبة إلى جارتنا أم سناء للسلام عليها، أحضر بعض الحبّ من المطبخ وأطعم الحمام أنت وسناء**".

وتمضي أمي، فتلتفت إليّ سناء، وتسأل غاضبة:

"**من هي البنت التي في النافذة؟**".

"**بديعة**".

وتخبط قدميها في الأرض، وتوليني ظهرها، وتقول عاتبة:

"**وتعرف اسمها، وتعرف هي اسمك؟!**".

"**هي جارة جديدة، نزلت في دار الحاج عبيد**".

"**وستعطيك كتبها وستعلّمك؟!**".

وألتفت إليها، أقف قبالتها، أضع أصابعي تحت ذقنها، وأرفع رأسها إلى فوق، أحدّق في عينيها، وأعيد السؤال:

"**من قال ذلك؟**".

"**هي، هي يا أحمد، كنت أقرع عليكم الباب فأطلّت عليّ من النافذة وسألتني من أكون، ولم أجبها بشيء، فانطلقت تحدّثني وكأنّها تصفعني: أنا بديعة، جارة أحمد، أنا في الصفّ الثامن، سأعطي كتب العام الماضي لأحمد، سأعلّمه دروس السابع، أخبرني، هل يسرُّك هذا كلُّه يا أحمد؟**".

أحس بالضيق، أكاد أختنق، صوت بديعة يخنقني، اقتحامها يسدُّ كل المنافذ، ولكن، لا، لا.

وأرفع رأسي إلى سناء، أنظر في عينيها، ثم أهمس:

"**لا، لا يا سناء، لا تصدِّقي**".

"**أقسم لي**".

"**أقسم، أقسم**".

وقفز زوجا الحمام إلى حافّة البركة، فأمسك بيد سناء وأهمس لها:

"**هيّا لنحضر الطعام للحمام من المطبخ، وسنرشُّ له الحبّ معاً**".

***

أم خالد والكناري

قبل أن نبلغ الباب تقول لي جدّتي:

"**اقعد هادئاً، لا تلعب، لا تتكلّم، لا تلمس أيَّ شيء. وإذا أعطتك أيَّ شيء فلا تأخذه، وإذا وضعت الطعام فلا تأكل، أم خالد لا تحبُّ الأولاد**".

منذ يومين وجدّتي تمنِّيني بزيارة أم خالد، وتحدّثني عن دارها الواسعة الجميلة، وأنا أحلم بها، واليوم قالت لأمي:

"**هاتي لعماد الثياب الجديدة**".

وردّت أمّي بامتعاض:

"**أنا لا أحب أم خالد، ولا أريد لابني أن يزورها**".

ولكنّ جدّتي أصرّت، فاضطرّت أمي لإحضار ثيابي الجديدة، ورمتها أمام جدّتي، ثم مضت إلى المطبخ وهي تغمغم.

وساعدتني جدّتي على ارتداء ثيابي وهي تغمغم أيضاً بكلمات أيضاً لم أتبيّنها، ويداها المعروقتان ترتعشان.

وأمام باب عريض، من قطعة واحدة، تقف جدّتي، تلتقط أنفاسها، ثم تقول:

"**هذه هي أم خالد، انظر إلى بلاط الزقاق أمام الدار، كم هو نظيف ! وانظر فوق، إلى هذا الكشك، هو لها**".

بلغت الزقاق المفلطح أمام دارها، أبيض لامع نظيف، كأنّه غسل للتو، لا غبار، ولا قشّة، وفوق الباب يمتدُّ إلى الأمام كشك خشبي مزخرف، يظلِّل جزءاً من الزقاق.

وتمسك جدّتي قبضة برونزية معلّقة في أعلى الباب الخشبي، وتدقُّ.

ثم تلتفت إليَّ وهي تقول:

"**هذه هي دقّتي أنا، أم خالد تعرفها**".

حقيقة، لِماذا دقّت جدّتي الباب مرّتين متتابعتين، ثم دقّته مرة ثالثة وتوقّفت؟

ويُفتح الباب على طوله، وتظهر أم خالد بقامته القصيرة، وعينيها الصغيرتين الغائمتين، وراء نظّارة طبيّة بيضاء، وأنفها الدقيق، وهي ترحب بجدّتي وتكرّر الترحيب مرّات ومرّات، وأنا أرى إلى فمها المتغضّن وكأنّها تمجُّ الكلمات مجّاً من شفتيها الرقيقتين الزرقاوين.

وتمضي بنا في دهليز طويل، ما يلبث أن ينفتح على فناء واسع، يبهرني بخضرته، وكأنه الجنة التي تحدّثني عنها دائماً جدّتي.

أشجار وعرائش، وزروع، تتوسّطها بركة فيها نافورة، وقد صُفّت على أطرافها أصص الزهر، وثمّة درج صاعد، له درابزين مزخرف، وعلى كل درجة أصيص زهر، وفوق الدرجة الأولى قوس حديدية عالية، تدلَّى منها قفص فيه كناري أصفر يتقافز.

وتسألها جدّتي:

"**كيف حال الزهر عندك يا أم خالد؟**".

وترد:

"**تعالي لنتفرّج قبل أن نصعد إلى فوق**".

ثم تلتفت إليَّ سائلة:

"**ما زال اسمك عماد؟**".

ويطفر الدم إلى وجهي، ولا أحير جواباً.

وتتابع هي كلامها فتقول لي:

"**تنبّه إلى الزرع، وتفرّج مع جدّتك، ولكن لا تلمس أيَّ زهرة**".

وتمسك جدّتي بيدي وهي تقول:

"**ابق بجانبي**".

وأحس بالقهر، وأنا أكاد ألتصق بجدّتي، ولكن، سرعان ما تجتذبني ورود كبيرة متفتِّحة، حمراء قانية، وصفراء فاقعة، وبيضاء نقيّة، وألاحظ أشواكها الراعبة وأنا أنظر إلى عيني أم خالد الحادّتين وهي ترمقني من وراء نظّارتها.

ثم نمضي إلى زهور مندفعة في تفتُّحٍ باهر، كأنَّها كؤوس، ينفحني عبقها كالبهار.

"**انظري إلى هذا القرنفل؟!**".

هكذا تتكلَّم أم خالد، بتيه وإعجاب. وتعلِّق جدّتي مؤكِّدة:

"**ما شاء الله !**".

ونمضي تحت عرائش الكرمة، بأوراقها الخضراء الزاهية، وهي تمنحنا ظلاً رطباً يانعاً، وتحتها صفَّت أصص السجّادة بأوراقها الخضراء المنبسطة، المزركشة بالأحمر.

وتلتفت إليّ أم خالد قائلة:

"**لو كان هذا أوان الحصرم لكنت قطفت لك عنقوداً**".

ثم تمضي بنا تحت عرائش الياسمين، وتتابع كلامها إليَّ قائلة:

"**على كل حال، التقط من هذا الياسمين المتساقط على الأرض ما تشاء، خبِّئه في جيبك، وخذه إلى أمِّك**".

وتعلّق جدّتي:

"**اتركي الآن سيرة أمّه**".

"**ما بالها؟ ما زالت كما هي؟**".

"**وأكثر**".

"**كل الكنّات هكذا، الواحدة أسوأ من الأخرى**".

وتمضيان في غمغمة خافتة، لا أتبيَّن فيها ما تقولان، ونحن نطوف في الفناء، ونرى الزهور.

وأمام البركة نتوقّف، لنرى إلى الماء المتقافز من النافورة، وهو يتناثر في رذاذات ناعمة، لها وسوسة هادئة، وهي تلامس صفحة الماء، وفوقها تتهادى ياسمينات بيضاء، كأنّها بجعات صغيرة.

"**سنشرب القهوة فوق في الحجرة، فهي أهدأ**".

هكذا تتكلّم أم خالد، وهي تمضي وجدّتي نحو الدرج، وأنا أمنّي النفس في البقاء مع الزهور.

وتلتفت إليَّ أم خالد وقد أحسّت بتريُّثي، فتقول:

"**لا يجوز أن تبقى هنا وحدك، فقد تكسر أصيص الزرع، أو قد ترمي العصفور، أو تؤذي نفسك. تعال معنا إلى فوق**".

وأمشي في إثر جدّتي، ونفسي معلّقة بالبركة والزهور، وأما الكناري تقف أمّ خالد لتقول لجدّتي:

"**انظري، هذا الكناري أغلى ما عندي، هو وحده الذي يسلّيني، يفهم أكثر بني آدم، يغرِّد سبعة لحون، أضع له الماء والطعام كلَّ يوم بنفسي، حتى إنّه يتناول الطعام من يدي**".

وتسألها جدّتي:

"**وأبو خالد؟**".

وترد:

"**أبو خالد لا خير فيه، لا يعرف سوى الدكّان والمقهى. قبل أن تأتي بدقائق استيقظ من نومه، صلى العصر، وخرج. قلت له: لنشرب القهوة معاً، قال: سأشربها في المقهى مع أصحابي**".

ونرقى الدرج وأنا أتطلّع إلى الكناري، وبين أصابعي ياسمينة واحدة أتنسّم شذاها.

وتلتفت إليّ أم خالد قائلة:

"**لم تلتقط غير ياسمينة واحدة؟ على كل حال، احذر، لا تمدّ يدك إلى الكناري، حتى لا ينقر إصبعك**".

وعند كل درجة تتوقف جدّتي وأم خالد لتتأمّلا أصص الزهر، وأم خالد تتكلم:

"**هذه الفلّة تتفتّح مساءً، وتلك هي الحنّاء**".

زهرات الفل تتناثر بين الوريقات كالنجوم، وزهيرات الحنّاء يتراصّ بعضها قرب بعض في غزارة واندفاع، وقد التفّت على شكل كفٍّ مضمومة الأصابع، وهي تنفح عبقها الفاغم.

عند قمّة الدرج التفتُّ لأرى الجنّة الخضراء، وأنا أتمنّى لو بقيت هناك مع الكناري، ولكنّني مكرهٌ على الانصياع.

وأمام باب الحجرة أخلع حذائي، وأدخل في إثر جدّتي، فيفجأني الهدوء، كل شيء في مكانه، كأنّ أحداً لم يدخل الحجرة منذ دهر.

أرائك مريحة، مغطّاة بملاءات بيضاء مسدلة، لا تجعيد فيها ولا انحناء، ومناضد صغيرة موزّعة في الأركان، تعلوها أباريق وزهيرات

وصحون نحاسية لامعة، وفي الجدران خزائن خشبية ذات واجهات زجاجية، تشف عن رفوف مملوءة بكؤوس وصحون زجاجية فاخرة، والأخشاب التي تكسو الجدران مزركشة ومزخرفة ومنقوشة، وتبادر أم خالد إلى سؤالي:

"**هل تحسن يا شاطر قراءة الآيات المنقوشة على الجدران؟**".

وأنظر إلى أعلى، فأرى دون السقف على طول الجدران رسوماً محفورة على الخشب، بوريقات وزهور تحيط بحروف وكلمات.

وتردُّ جدّتي، وهي تحتلُّ مكانها على الأريكة.

"**عماد ما زال في السادسة، العام القادم سيدخل المدرسة**".

وتعلِّق أم خالد وهي تقعد على الأريكة المقابلة لجدّتي:

"**ولكن، عمر ابن أختي، دخل المدرسة**".

"**عمر أكبر من عماد**".

"**لا، أنا أتذكّر أنه ولد معه في السنة التي...**".

ويحتدم بينهما الجدال والنقاش، وأمضي أنا إلى عمق الغرفة، حيث نوافذ صغيرة من الخشب المزخرف، أنظر من خلالها، فإذا أنا فوق الزقاق، وإذا باب الدار تحتي مباشرة، والزقاق يمتدُّ، وأنا أرى إلى أسطحة المنازل المتألّقة تحت أشعة الشمس المائلة إلى الغروب، وثمّة غسيل أبيض نقيٌّ منشور على حبال في سطح مقابل.

ويجيئني صوت أم خالد:

"**لا تحاول فتح النافذة يا عماد، حتى لا تقع**".

وألتفت إليها، وهي تتابع الكلام مع جدّتي:

"**لا أريد لنسمة الهواء أن تدخل، حتى لا تحمل الغبار. كلَّ يوم أشقى في المسح والتنظيف**".

وتناديني جدّتي:

"**تعال يا عماد، اقعد بجواري**".

وتضيف العجوز وهي تنظر إليّ بعينيها الصغيرتين، الحادّتين البارزتين من وراء نظّارتها:

"**نعم، تعال اقعد هنا بجوار جدّتك، هذا أفضل**".

وأترك النافذة، أمشي متمهِّلاً، أدنو من جدّتي، وأقعد بجوارها.

وتنهض أم خالد إلى الخزانة، تفتحها، تخرج منها صندوقاً معدنياً صغيراً، تضعه على منضدة صغيرة، وتبادر إلى فتحه، فتخرج منه بضع قطع معدنية، تشبه موقداً صغيراً، ولكنّه مفكّك محطّم، أظنّها ستعطيني إيّاها لألهو بها، ولكن أُفجأ بها وقد ركّبت بعض القطع إلى بعض، وإذا هي موقد صغير.

وترجع إلى الخزانة، فتخرج منها زجاجة فيها سائل أزرق، تفتحها، فتعبق الحجرة برائحة نفّاذة، تذكّرني برائحة الكحول التي مسحت به أمي ذات مرة أصبعي المجروحة، وتصبُّ من ذلك السائل الأزرق في خزّان الموقد الصغير، وتشعله بعود الثقاب، فيتصاعد لهب أزرق.

ثم تأتي بغلاّية تضعها على الموقد، وأدرك عندئذ أنّها ستعدُّ القهوة.

وتتابع أم خالد عملها بهدوء ودقّة، كل حركة بقدر وحساب، وهي تثرثر، تارة تتحدث عن الزهور، وأخرى عن الكناري، وثالثة عن القهوة وطريقتها الخاصّة في تحضيرها، وهي ما تفتأ تحرِّك الملعقة في

القهوة، ولهب النار يتدفّق تحت الغلاّية، وهي تبعدها عن اللهب تارة، وتدنيها منه أخرى، والقهوة تغلي وتفور.

جدتي وأم خالد ترشفان القهوة بهدوء شديد، وشذاها العبق يملأ الحجرة، وجدّتي تثني على مذاق القهوة وطريقتها المتميِّزة في إعدادها، وأم خالد تزهو.

ويعلو في الخارج ضجيج أولاد يلعبون بالكرة، وهم يصخبون ويتصايحون، في ضوضاء عالية.

كم الزقاق جميل، وجدّتي تمسك يدي الصغيرة بيدها الناحلة الراعشة، وهي تجرُّ خطاها الثقيلة فوق بلاط الزقاق الأبيض المفلطح، وأنا أسير بقربها، ننعطف مع انعطاف الزقاق، ونسير على سمته الطويل الممتدّ، أراه منتهياً عند جدار، وكأنّه مسدود. ولكن ما إن نبلغ منتهاه حتى نجد انعطافاً مفاجئاً، فنمضي فيه، ثم نمر تحت كشك خشبي مزخرف، يظلِّل الزقاق، وتلتقي جدّتي بامرأة عابرة، فتحيّيها، وتقفان لتتحدثا، وكأنّ جدتي نسيت أنّها ذاهبة إلى أم خالد، وأنا ضجر، أودُّ لو تابعنا المسير.

ثم نبلغ جزءاً من الزقاق مسقوفاً، نسير تحته أنا وجدّتي، فتحتوينا عتمة خفيفة، ورطوبة ناعمة، وأحسُّ بمتعة غريبة، وأودُّ لو طال ذلك الجزء المسقوف. ولكن، ما نلبث أن نخرج إلى النور، لينفتح الزقاق ثانية، ويتعرّج ويمتدّ.

أم خالد تنهض غاضبة، تحمل دورق ماء، تفتح النافذة، تصيح بالأولاد، لاعنة شاتمة، مهدِّدة، ثم تدلق الماء.

ويبتعد الأولاد، وتغيب الضجّة، ويبقى السكون، ولا أحسُّ سوى رشف جدّتي وأمّ خالد للقهوة، وأنا قاعد لا أتحرّك.

ويتسرّب إليَّ نداء الكناري وهو يغرِّد في دفق متّصل من الأنغام المنوّعة الملوّنة، بين تقطيع وإرسال وصفير وشدو ونداء وخفوت يكاد ينقطع ليدخل في ترجيع جميل يتدفّق إثره صفير متّصل، وأميل على جدّتي، وأهمس لها، وتسأل أم خالد:

"**ماذا يريد الولد؟**".

وترد جدّتي:

"**لا شيء**".

وأصبر قليلاً، ثم أميل على جدّتي وأهمس ثانية، فتتجاهلني جدّتي، ومرة أخرى تسأل أم خالد، وكذلك يأتي الجواب نفسه.

"**لا شيء**".

وتنهض أم خالد إلى الخزانة، تفتحها، تخرج تفاحة حمراء كبيرة، جانبها معطوب قليلاً، تقدِّمها إليّ، فأمتنع عن أخذها، وتلحُّ عليَّ وأنا أمتنع، وتشير إليَّ جدّتي أن خذها، فأتردَّد قليلاً، ثم آخذها، أنقلها من يدي إلى يد، ونداء الكناري يمتدُّ ويمتدّ.

أضع التفّاحة على الأريكة بجواري، وأهمس لجدّتي، وتسأل أم خالد:

"**لعلَّ الولد يريد الذهاب إلى...**".

وترد جدّتي:

"**يمكنه التأجيل حتى نذهب إلى البيت**".

وتمرُّ هنيهة صمت، والكناري ما يزال يرسل نداءه.

أنزل عن الأريكة، أتّكئ على ركبة جدّتي، أضغط عليها، أهمس لها، فتهمُّ جدّتي بالنهوض، فتسألها أم خالد:

"**إلى أين؟**".

وترد جدّتي:

"**أرجو أن تأذني لي في الذهاب، سأزورك في وقت آخر من غير الولد، خطئي أنّني أحضرته معي**".

وتعلِّق أم خالد:

"**إذا كان يريد الذهاب إلى الحمّام فليذهب**".

ثم تلفّتت إليَّ لتقول:

"**هيا، الحمّام تحت الدرج مباشرة**".

وأمضي على الفور باتّجاه الباب، وقبل أن أخرج يستوقفني صوت أم خالد وهي تقول:

"**ولكن، تنبّه، لا تقطف الزهور، ولا تترك الصنبور مفتوحاً، ولا تحاول الوصول إلى القفص**".

وأفتح الباب لأستقبل الخضرة والماء وتغريد الكناري.

وأمضي كالفراشة، أعدو على الدرج، أدخل الحمّام، ثم أخرج سريعاً، أرقى درجتين أو ثلاثة، وأقف لأتملّى الكناري.

الكناري يغرِّد، وفرة الريش الناعم عند عنقه تتدافع وفق ترجيعه الصوت، وحين يرسله ترفُّ الريشات.

أراه يميل بجانب رأسه نحوي، كأنه يرمقني بعينيه السوداء المتألقة، ولونه الأصفر الفاقع يشع.

لِماذا تعلِّق أم خالد القفص هاهنا؟ لِماذا لا تعلِّقه هناك تحت عريشة الياسمين، قريباً من النافورة والورد والقرنفل؟ يا ليتها تنْزل هي وجدّتي لتقعدا هنا، لست أدري ما الذي يعجبهما في تلك الحجرة ذات الملاءات البيضاء، وكأنّها حجرة الملائكة.

وأضع رجلي على حافّة أصيص الحنّاء، أمدُّ يدي إلى القفص، يرمقني، أمدُّ يدي إلى القفص أكثر فأكثر.

وإذا أنا على الأرض والقفص، أحاول النهوض بصعوبة، ذراعي تؤلمني، وكذلك جبهتي، والقفص إلى جانبي، تناثر منه الحب، وسال الماء، والكناري يتقافز مذعوراً، وأحسُّ بشيء ما دافئ يسيل على جبهتي، وأمسحها بيدي، وأنظر، وإذا الدم.

يجب أن أعيد القفص إلى مكانه، يجب أن أمسح الدم، ولكنّه يلوّث قميصي.

يا إلهي، أين أنت يا أمي؟

وأنادي جدّتي.

وعلى حافّة البركة تجلسني جدّتي، وأم خالد تضغط على جبيني بشيء ما، ثم تلفُّ رأسي بعصابة.

والقفص ما يزال على الأرض، والكناري يتقافز.

ووراء الباب تودِّعنا أم خالد وهي تلح على جدّتي أن تزورها مرّة أخرى، وأن تصطحبني معها. ثم تناولني طاقة زهور وهي تقول:

"**لا، لا يا حبيبي، لا تحزن، أنت ولد شاطر، فداك الكناري والزهر كله، ولا يصيبك مكروه**".

وقبل أن تغلق الباب وراءنا تقول لي:

"**انتظر يا عماد، انتظر، نسيت التفّاحة، سأحضرها لك**".

فأرد:

"**لا، شكراً يا خالة، تكفيني الزهور**".

وأمضي في الزقاق، أنا وجدتي، معصوب الرأس، أحس بالتعب والدوار.

وأدخل البيت، فتذعر أمي، وتصيح مستنكرة:

"**ما هذا؟ دم؟ الولد وقع؟**".

وتضمُّني إليها، وهي تلتفت إلى جدّتي معاتبة:

"**قلت لك: لا أريد أن تصطحبيه معك في زيارة إلى أم خالد، أنا أعرف، هذا كله من عين أم خالد، عينها حاسدة، تبلى بالعمى، عجوز النحس، لم ترزق بولد، لذلك لا تحب الأولاد**".

وتفك العصابة عن رأسي، فينفجر غضبها، وتصيح:

"**بن، بن تسد به الجرح، الله يلعن القهوة، ويلعن...**".

ثم تشدّني من يدي، وتمضي بي عبر الزقاق أيضاً على الطبيب.

عصافير وطيور وحمائم كثيرة كثيرة، كبيرة وصغيرة، بألوان مختلفة، تحلّق، تحوم، ترفّ، كأني أراها من وراء زجاج سميك، الزجاج يتحرك، زجاج من نوع خاص، كأني أراها من قمّة الدرج في منزل أم خالد، كنها تمضي في اتّجاه واحد، تتجه إلى سمت محدّد، كأنّها تتجه إلى ذلك الزجاج بمناقيرها، الزجاج يختلط بالزهور، يشعشع بألوانها، فيغدو أحمر وأخضر وأصفر، أحدها ينقر الزجاج.

هو حلمٌ إذاً، وأمّي هي التي تنقر باب غرفتي وتدخل لتمسح بيدها على رأسي وخدّي، وهي تقول:

"**هيّا يا عماد، انهض، تعال لتنظر من جاءنا في الصباح**".

طوال الليل لم أنم، وأنا أحس بالنبض في موضع الجرح، وأرى الطبيب من وراء نظارته الطبية البيضاء، وهو يميل على رأسي بصدريته البيضاء، ثم يأتي بعصابة بيضاء، يلفُّ بها رأسي.

وأمضي مع أمي إلى غرفة الضيوف، فأجد جدّتي، وبجوارها على الأريكة أم خالد، وهي ترمقني بعينيها الصغيرتين من وراء نظّارتها البيضاء، وأرى أمامها على المنضدة شيئاً ما كالصندوق، مغطًّى بملاءة بيضاء كالملاءات التي تغطّي بها الأرائك في حجرتها. أتمسّك بيد أمي، وأشدّها، أريد العودة، والخروج من الغرفة، لكنّ جدّتي تبادرني قائلة:

"**تعال يا عماد، ارفع الملاءة لترى ما أحضرت لك خالتك أم خالد**".

وأحسُّ بحركة تحت الملاءة، وسرعان ما أدرك أن أمّ خالد قد أحضرت إليّ القفص وفيه الكناري.

***

الليرة.. وبائع المثلّجات

"**تعال يا عليّ**".

يناديه جدّه بحنان، وهو يشير إليه بعينيه، ويده إليه ممدودة.

وتدفع به أمه، فينزل عن المقعد الذي كان فيه بجوارها، ويمضي نحو جدّه بهدوء وتردّد.

"**تعال، تعال يا عليّ**".

ويضمّه جدّه إلى صدره، يقبّله، ويضع ليرةً في يده.

ويدخل عليهم ابن خاله فاروق، فيلمح الليرة في يد عليّ، فيسرع إليه، ليقول له:

"**وأنا جدّي أعطاني ليرة، صار معي ثلاث ليرات، أبي أعطاني ليرتين، أنت كم أعطاك أبوك؟**".

وتنهض أمّ عليٍّ لتخرج، وقد امتلأت عيناها بالدموع.

ويصيح الجدُّ بفاروق:

"**هيا، هيا يا فاروق، اذهب أنت وعلي وكل الأولاد، اذهبوا إلى الساحة، تفرّجوا على المراجيح، اشتروا ما شئتم**".

ويمسك فاروق يد علي، وهو يقول له:

"**هيا، سنشتري مثلَّجات**".

وقبل أن ينطلق الأولاد، يقول لهم الجد:

"**تنبّهوا جيِّداً، ثياب العيد جديدة، حافظوا عليها**".

الأولاد يتزاحمون أمام بائع المثلّجات، كلٌّ منهم يمدُّ إليه يده.

ويفد عليٌّ على البائع مع أولاد خاله.

البائع يصيح بهم:

"**بهدوء، بهدوء، وبالدور**".

ويمدُّ يده يجمع الليرات من هذا وذاك، حتى يستوفي النقود من كلِّ الأيدي الممدودة.

ثم يبدأ بمناولة الأولاد المثلّجات، وهو يعمل بسرعة وجد.

فاروق يأخذ قطعته ويركض بها.

سناء تأخذ قطعتها.

أمجد يأخذ قطعته.

عليٌّ ما يزال يمدُّ يده، ينتظر دوره.

يفد أولاد آخرون، يمدّون أيديهم بالنقود، وهم يتصايحون، كلٌّ منهم يريد مناولة البائع ليرته.

عليٌّ ما يزال ينتظر.

البائح يصيح بهم:

"**بهدوء، بهدوء، وبالدور، عندي مثلّجات كثيرة**".

البائع يمدّ يده، يجمع النقود من هذا وذاك.

يد علي ما تزال تمتدّ، وهو ينتظر.

البائع يصيح به:

"**وأنت، أين ليرتك؟**".

"**أعطيتك ليرتي**".

"**كذّاب**".

عليٌّ يلتفت، ينظر إلى الساحة، يرى أولاد خاله يتراكضون فرحين، وبأيديهم المثلّجات، وهم يلعقون سائلها الشهيّ، ومن حولهم المراجيح والباعة والعربات.

أولاد خاله غير منتبهين إليه.
يلتفت إلى البائع، يؤكّد له:
"**والله يا عمي أعطيتك**".
البائع يزجره:
"**ابتعد، لا تحلف بالله، لصٌّ كذّاب**".
شفتا عليٍّ تتقلّصان، صوته يتهدّج:
"**والله، والله يا عمّي**".
ويغص بالدموع.
البائع يصيح به، وهو يهمُّ بضربه:
"**ابتعد، كذّاب**".
ويأخذ في مناولة الأولاد المثلَّجات، وهو يغمغم:
"**كذّاب، الذنب ما هو ذنبك، أبوك ما ربّاك**".
ويعلو من بين الأولاد صوت يقول:
"**حرام، لا تشتمه، أبوه ميت**".
عليٌّ ينسحب من بين الأولاد، وهو يبكي.
يلتفت إلى الساحة، يرمقها بنظرة، والدموع تملأ عينيه.
ثم ينطلق.

***

عليٌّ يدخل على جدِّه، والدموع تنسكب من عينيه، وهو يُنْشِجُ ويُنَهْنِه.
جدّه يستقبله بذراعين مفتوحتين، ويسأله:
"**ماذا حصل؟ هل ضربك أحد؟! هل أضعت الليرة؟!**".

عليٌّ يقف أمام جدّه، يمسح دموعه، يخبط الأرض بقدمه، يصيح، وهو يغصّ بالدموع:

"**لِماذا قلتم أبي مسافر؟ لِماذا كذبتم عليّ؟**".

***

أفرح.. إذ تجيء

في صباح اليوم الأول من أيام العيد، لاحظت الأم أنّ (باسماً) لم يتناول سوى قطعةٍ من تلك الحلوى المحشوّة بالفستق، والتي يحبّها كثيراً، وهي التي كانت تتوقع أن يأكل منها ثلاثاً، لا واحدة.

ثم انتبهت إلى أنّه قد تأخر كثيراً في الخروج من غرفته، على حين سبقه إخوته، مرتدين ثيابهم الجديدة، بل إنه لم يخرج من غرفته إلا بعد أن نادته، وحين خرج، كان لم يرتد من ثياب العيد الجديدة سوى القميص. فدهشت، وسألته عن سرّ ذلك، فلم يستطع أن يجيب بشيء، وظلَّ واجماً.

ولَمّا وزّع الأب على إخوته قطع النقود، وأعطاه حصّته، كان هو أقلّهم فرحاً بها، مع أنَّ نصيبه منها كان أكثر منهم، فسأله:

"**لِماذا أنت هكذا يا باسم؟! لم تأكل، ولم ترتد الثياب الجدية، ولم تفرح، هل ينقصك شيء؟!**".

وظل باسم صامتاً لا يجب، وكم ودّ لو يهرب من وجههم، ليلجأ إلى غرفته، ويقفل عليه بابها، ويقعد وحيداً، ولكنّه العيد وأفراحه، وإخوته وأمه وأبوه، وعليه أن يظلّ معهم. ولم تلبث أخته الصغرى (سمر) التي يحبّها كثيراً أن سألته:

"**ألن تأخذني معك إلى الأرجوحة؟!**".

ولم يجبها بشيء، ولولا أخته (منى) لكان الصمت قد ظلّ مخيِّما، فقد قالت بلثغتها المحبَّبة:

"**إذا كان باسم لا يريد أخذنا معه، فسنذهب مع عامر**".

فأحس عامر بزهو شديد، إذ وجد أخته ترجوه أن يأخذها معه، فوعدها بذلك، معتدّاً كل الاعتداد.

ولم يجد باسم بدّاً من اللجوء إلى غرفته، فكأنه محاصر، وكل شيء يراه معتماً، يزيد في ضيقه وكربه، ويكاد يخنقه، كأّنما أُلقي به في بئر، على الرغم من جدّة الأشياء، وفرحة العيد، فاستأذن، ومضى إلى غرفته، وهو يهمُّ بالبكاء.

ولئن كان باسم أكبر إخوته، وقد بلغ الصفّ الخامس، فهو في الحقيقة لم يتجاوز عشر السنين، أما أخوه عامر فهو يصغر بسنتين، وأمّا منى فلم تبلغ السادسة، وسمر في الرابعة، وكلّهم متحابّون متعاطفون، ولباسم حظٌّ كبير من حبِّهم وتعلُّقهم، ليس لأنه أكبرهم، بل بحبِّه هو الآخر لهم، واهتمامه بهم، وحصره على مشاركتهم ألعابهم، ولذا فقد دهش الجميع لموقفه، وبوغتوا باكتئابه، ولم يعرف أحدهم ماذا يفعل؟ ولم يلبث الأب أن سأل إخوته:

"**هل أغضبتموه في شيء؟**".

فأكّد له الجميع أن ليس ثمة شيء حدث أو قيل، يمكنه أن يغضب باسماً، والتفت الأب إلى الأم يسألها السؤال نفسه، فأكدت له ما قاله الأولاد، ولكنها أشارت إلى أنها قد لاحظت عليه بعض الاكتئاب خلال اليومين السابقين، ولكن ليس بالشكل الذي هو عليه اليوم. فقرر عندئذ أن يمضي إليه، وما إن دخل غرفته حتى فوجئ به وهو يبكي، فبادره بالسؤال:

"**لا يا باسم !! أتبكي؟! كيف تبكي وأنت في يوم عيد، وستخرج لزيارة أصدقائك؟**".

فأجابه وهو يمسح دموعه، خجلاً:

"**لا، لن أخرج**".

"**لِماذا؟**".

"**ومن سأزور؟**".

"**أصدقاءك.. أكرم وسامح ومنير..**".

ولم يجب باسم، وغص بدموعه، فعرض عليه الأب أن يذهب معه في زيارة عمّه، ليلتقي بأولاده، ويشاركهم فرحة العيد، ولكن باسماً ظلَّ صامتاً، لا يجب. فتردد الأب لحظات، ثم أعطاه بعض النقود، وقال له:

"**إذا كنت لا تريد الخروج أيضاً مع إخوتك، فخذ هذه النقود لتشتري بها ما تريد**".

شعر باسم أنه أوقع أسرته في اضطراب، ولا مسوّغ له، وأنّه كدّر عليهم صفاء العيد وفرحه، فاعتذر لأبيه:

"**أنا آسف يا أبي. وأشكرك لاهتمامك بي، الحقيقة أني لا أريد شيئاً**".

"**ولكن، ما الذي يحزنك؟**".

وحاول باسم أن يخفي اكتئابه، فلم يستطع، وكان ينفجر في البكاء، وأحس بضيق أشد، فتركه الأب وخرج، فواجهته الأم باللوم، ليس لأنه لم يستطع إقناع باسم بشيء، بل لأنه تركه وحده، وأصرت على أن تدخل إليه لتحاول الوقوف على حقيقة الأمر، ولكن الأب أكّد لها أنَّ من الأفضل تركه وحده قليلاً. ثم عاد إلى سؤال إخوته.

وبينما هم في بحث أمر باسم، رنَّ جرس الباب، فأسرع إليه عامر يفتحه، وإذ بأكرم صديق باسم، فاستقبله وقاده إلى الداخل، وما كاد أكرم ينطق بعض الكلمات، محييا الأسرة، حتى فوجئ بباسم، وقد سمع صوته، يندفع إليه من غرفته، ليعانقه وهو يسأله:

"**أكرم.. ألم تسافر؟! هل قررتم البقاء؟**".

وأجابه أكرم:

"**أجل يا باسم !**".

فأسرع باسم يقول:

"**إذاً، اسمح لي بدقيقة واحدة، حتى أرتدي ثياب العيد**".

والتفت إلى أمّه، وهو ماضٍ إلى غرفته:

"**ماما.. أرجو أن تهيئي لنا أطباق الحلوى**".

ودخل باسم إلى غرفته تاركاً الجميع في ذهول، وانتبه أكرم إلى دهشة الأسرة، بكلِّ أفرادها، فهم ينظرون إليه ولا يفهمون شيئاً، فأدرك حقيقة الأمر، وقال لهم قبل أن يسألوه:

"**قبل العيد بيومين، تسلّم أبي قرار نقله إلى محافظة أخرى ليباشر فيها وظيفته الجديدة، ولا بد له من الانتقال بعد العيد، وقد أخبرت باسماً بذلك، وكان سينقلنا معه**".

وهنا ظهر باسم خارجاً من غرفته، وقد ارتدى ثيابه الجديدة، والفرحة تملأ وجهه، فتابع أكرم حديثه، وباسم يصغي إليه بفرح:

"**ولكنَّ أبي قرّر أن يذهب وحده، وألا ينقلنا معه، وهو سيبقى وحده في مكان عمله الجديد، حتى نهاية السنة**".

فقاطعه باسم وقد عاد الاكتئاب إليه:

"**وهل ستنتقلون بعد ذلك؟!**".

فأجابه أكرم:

"**لا، إن العمل الجديد سينتهي في خلال سنة، وسيرجع أبي بعدها**".

فابتسم باسم فرحاً، وسأله:

"**إذاً سنبقى معاً**".

"**أجل**".

"**ولن نفترق؟**".

"**لن نفترق**".

وشدّ باسم على يد أكرم في مصافحة قويّة، وهو لا يعرف كيف يعبِّر عن فرحته، ثم التفت إلى أسرته، وقال:

"**إذاً، هيّا لنتناول الحلوى، ولنفرح بأكرم إذ يعود إلينا**".

فأجابه أكرم:

"**ولكنّي لم أذهب**".

"**حقاً، ولكن الفرحة ذهبت، لمجرد تفكيرك بالذهاب، وها نحن نفرح إذ تجيء**".

***

الشاعر.. والفراشة

مهداة إلى الشاعر
مصطفى النجّار

– ١ –

مشرقَ الوجه بالبسمة الراضية أَلْتَقِيه.

ونقف إلى جانب الرصيف، وسط الضجيج والزحام، نتبادل السؤال عن البيت والعمل والأسرة والأولاد.

"**ابنتي مريضة**".

"**أي بناتك؟**".

"**الصغرى، تلك التي دعوتَها ذات يومٍ الفراشة**".

وأعلِّق مُطَمْئناً:

"**الأولاد دائماً يمرضون**".

"**ولكن هذه مرضها...**".

ويصمت هنيهة، وقبل أن أسأله، يجيب:

"**منذ عشرين يوماً، وهي راقدة في المستشفى**".

وهو يتلو عليَّ القصيدة، ينفتح الباب المفضي إلى الداخل، وتهفو إلينا فراشة حلوة كالعسل، بيضاء الوجه كالحليب، خصلات شعرها تنوس كالموسيقا، وهي تلثغ بالحروف، تغرّد غناءً أبيض:

"**بابا، بابا** ".

تندغم رشاقتها في صوته، يفتح لها ذراعه، يضمّها إليه، عيناها بسمتا قرنفل، يداها الناعمتان تتشبثان بيده، خصلات شعرها ترف على القصيدة.

داخل حجرته الضيقة كنت أحسُّ بالاختناق.

تحت السقف، داخل فضاء الجدران الكئيبة، تدور المروحة، تهتز، وعند كل دورة تئز، أحسّ كأنّها تشرف على السقوط.

الحجرة مغلقة، ثمّة باب يفضي إلى الداخل، وآخر يؤدّي إلى الخارج.

العرق يرشح على جبهتي.

ثمّة في الداخل على ما يبدو غرفة واحدة، والأولاد هناك يضجّون.

مصباح ناتئ في الجدار، وفي الزاوية طاولة غصّت بالأوراق والصحف والمجلات في تراكم عجيب.

ويدخل عليّ وهو يحمل القهوة:

"**آسف لتأخُّري**".

ويقدِّم إليّ القهوة، ثم يبحث تحت الأريكة القديمة عن شيء ما يضع عليه الفنجان.

ومن بين ركام الأوراق والصحف والمجلات يستلُّ وريقة صغيرة، ويهمس:

"**سأتلو عليك آخر قصيدة كتبتها...**".

أمسح العرق عن جبيني، أرشف قهوتي.

ألقٌ باسم يشعُّ في العينين، وجبين ناهض، وصوت بعيد بعيد.

تغيب الجدران والمروحة والعرق، لا يبقى غير الشعر.

ثم تدخل علينا ابنته.

فراشةٌ بيضاء ترفُّ في فضاء الحقول المخضوضرة، تسبح في ضياء الشمس، ترشف العبير، وتتراقص قطرات الندى، ويفيض الكون بهاء.

القهوة وعيناها والقصيدة، إيقاعات متلاحمة تنسج كياني.

من بيته الضيّق الخانق الكئيب المكتظ بالأولاد والفقر، أخرج مرح الفؤاد، وقد صبّت في روحي ألف روح، وقد غرست في جوانحي آلاف الأجنحة، أخرج وأمامي تتداح آفاق وآفاق، فلا جدران ولا آلام ولا ولا..

"**كم ولد عندك؟**".

"**سبعة**".

"**وهذه الفراشة؟**".

"**الثامنة**".

"**يبدو أنّك تحبّها أكثر؟**".

"**ربّما**".

"**ولكن الحياة قاسية، وتكاليفها...؟**".

"**نحن نعيش بالرضا**".

الوجنتان غور ونتوء، والعينان ألق وحياة، والصوت دائماً قصيدة جديدة، ترفّ كفراشة تسبح في النور.

كلّما افتقرتُ أزوره، لأخرج من بيته وفي قلبي روح جديدة.

واليوم ألتقيه، وابنته مصابةٌ بورم خبيث في الدماغ، والبسمة الراضية تملأ وجهه.

"**سأزورها غداً في المستشفى**".

وأشدّ على يده مودّعاً، وأمضي في الزحام.
لا أعرف سرّ ذلك الرضا، ولا أفقه معناه.

– ٢ –

البهو مغلق.
في البهو أبواب كثيرة، ولكنَّها كلَّها مغلقة.
ثمة أريكة خشبية، من خشب بحت، لا جلد ولا قماش ولا شيء من نسيج.
في زاوية البهو وحده.
وجهه هو نفسه، وإن ازداد فيه الغَوْر والنتوء والشحوب، كأنّه لم يأكل منذ شهر. ولكن الجبهة زادت شموخاً، وزاد الألق في العينين.
لم أطق القعود.
بضع دقائق مرّت، هذه المرّة العرق يرشح حقيقة، من كلِّ المسامِّ والزوايا في جسدي.
روائح الأدوية تجعل المكان يدور.
ممرّض يدخل حاملاً كيس دم.
في الدقيقة الخامسة أغادر المكان.
لا أكاد أصدّق، الفراشة هناك في الداخل، خصلات الشعر الأشقر تذوب، الورم في الدماغ يمتصُّ كلَّ شيء.
وأنا أغادر المستشفى ألتقي أحد الأصحاب، نقف على الرصيف هنيهة.
"**هل ثمّة أمل؟**".
"**أبداً**".

"**ويعرف هو ذلك؟**".

"**بالطبع**".

"**كم كلّفته العملية؟** ".

"**مجموع رواتبه طول الخمس والعشرين سنة التي أمضاها معلِّماً لا تسدُّ سوى...**".

وأمضي، وفي الأعماق ما يزال صوته ينداح:

"**القصّة طويلة، لا أريد أن أشغلك بها وأزعجك**".

ألمح في جيب قميصه أوراقاً كثيرة مطويّة، لعلها وصفات طبيّة، أستشف فيها خطّه المتميّز، لا أشكُّ في أنّ قصائد كثيرة قد انهمرت.

وأنا أغادر البهو، شددت على يده مودِّعاً، حاولت أن أهمس ببضع كلمات، فوجدت صوته يغلبني ليقول وهو يبتسم:

"**أنا راضٍ**".

– ٣ –

وأنا خارج من المصرف أراه على الرصيف.

ضجيج السيارات وسخام عادماتها والزحام الخانق، سياط أخطبوط تمتصّ دمي.

يمدّ يده إليّ مصافحاً والبسمة كالربيع تملأ وجهه.

يدعوني إلى فنجان قهوة.

مع أني دخلت المقهى نفسه مرّات كثيرة، وقعدت أمام الطاولة نفسها من قبل مرّات ومرّات، بعت واشتريت وربحت وخسرت، وضاربت وساومت، وغضبت وفرحت، والتفّ حولي التجّار والمرابون والسماسرة، مع ذلك كلِّه، أشعر كأنني أدخل المقهى لأول مرة.

"في هذا الركن نلتقي كلَّ يوم، هذه هي طاولتنا، نتحدّث في شؤون الشعر والأدب".

"ولكنّني مجرّد تاجر، وما أنا بشاعر".

"ولكنّك تحمل في داخلك روح شاعر، يكفي أنك تحب الشعر، وتستمع إليه".

هكذا يكلّمني، وهكذا كان قد كلّمني قبل عشرين سنة، أوّل تعرُّفي إليه. حسبته يسخر منّي، كنت أظنه يحدق علي، لم أحمل في جيبي قطُّ قصاصةً من مجلة أو جريدة، ولم أحفظ بيت شعر، ذاكرتي محشوّةٌ بأرقام الحسابات والهواتف ومضاربات الأسعار، ولكن طوال عشرين سنة تأكّد حبُّه لي كحبِّه للشعر.

ليته يكتب عنّي قصيدة، يهجوني بها، أو يرثيني، ليته يعلم ضائقتي، الضرائب تراكمت عليّ وتضاعفت، وأنا أرفع السمّاعة أطالب هذا وذاك، أموالي مبعثرة هنا وهناك، ولا أحد يسدّد أو يدفع، وأنا أشتم وألعن وأصرخ.

وأسأله:

"كيف الفراشة؟".

"اليوم خرجت من الغيبوبة، بعد عشرة أيام، فتحت عينيها بهدوء، مثل شقشقة الفجر، والتفتت برأسها نحوي قليلاً، وحرّكت شفتيها، كأنّها تمس بابا أو ماما".

"وهل من جديد؟".

"دائماً عندي كل جديد، هذه قصيدة للفراشة، ليس ابنتي فقط، بل كل فراشات العالم، لكل طفلة مريضة، لكي تعدو وتلعب".

يأتي النادل، أهمُّ بدفع ثمن القهوة، ولكن يده تمسك يدي.
وأنا أودّعه، أتمّلى وجهه.
الحياة تفيض بها عيناه، وبسمته تملأ الكون نوراً وبهجة.

– ٤ –

داخل فضاء الجدران الحزينة تدور المروحة ببطء وهي تئز، والمصباح ينشر ضوءه الشاحب، والمسجّل الصغير يرسل صوت قارئ يرتّل آيات من القرآن الكريم.

أحس بالجدران تدور بي، كأني أهوي في قاع معتم، وأنا أختنق، أختنق.

بعد ثلاثة أشهر من عذابه هو، لا عذابها هي، تموت، عن أربع سنين من العمر، لماذا لم تمت بعد أسبوع، أو أسبوعين؟ لماذا كلّفته كلّ هذا العناء والمال والجهد؟ وهناك سبعة أولاد هم أحوج منها، لماذا؟ لماذا؟

"**أنا على استعاد لتقديم دم قلبي لتعيش، ولكن الأجل انتهى، كم أنا مشفق على ألمها ومعاناتها، وكم أنا مشفق على معاناة أمِّها**".

هكذا يأتيني رجع صوته البعيد البعيد، وكأنّه يقرأ أفكاري.
من أين له هذا الرضا، كما يسمّيه هو؟!
أتفرّس في وجهه.
النتوء في عظام الوجنتين زاد، الغور فيهما طغى.
كأنّه لم يأكل ولم يشرب منذ سنة.
في العينين الألق نفسه.
في العينين الحياة نفسها.

الباب المفضي إلى الداخل يفتح، وتنطلق فراشة ترف.

جديلتان شقراوان تغرّدان، ووجهٌ هو الأمل البسّام، ونداء بابا بابا ملحمة فرح جديد.

بيد يودّع المعزّين، يصافحهم، وبيدٍ يحملها، يضمُّها إليه، يقبِّلها.

أنهض، أمدُّ إليه يدي مودّعاً.

أهمس له، وأنا أداعب خدّ الفراشة:

"**غداً سنسمع قصيدةً جديدة لهذه الفراشة**".

ويجيب بصوته الواثق الذي عرفته قبل عشرين عاماً:

"**من غير شك، في كل يومٍ قصيدةٌ جديدة، وفراشات جديدة**".

في عمق الأحداق أرى دمعة تترقرق، تجول، تفيض، تتلألأ، ولكنّها لا تنسكب.

"**هو الرضا أيضاً؟**".

"**من غير شك**".

الرضا، الرضا، دائماً الرضا.

وهذا ما لم أذق له يوماً طعماً، ولم أدرك قطُّ كنهه ولا معناه، بلغت حساباتي الملايين، بدّلت سيارتي وشقّتي مرّات ومرّات، أنجبت زوجتي ثلاثة أولاد وبنتين، سافرت وارتحلت وزرت مدناً وعواصم كثيرة، ولكن لم أجد الرضا.

أغادر حجرتي المغلقة، وفي روحي ترف جديلتا الفراشة، وفي قلب يخفق ذكر ما همس به إليّ حين سألته:

"**وما سرُّ هذا الرضا؟**".

فأجاب:

"**هو الله**".

وأمضي وأنا أتمتم:

"**وقد نسيناه**".

***

الهرب من الحب

تتلقّى بوجهها النسمات المتسرّبة من نافذة السيارة، تسعد لتغلغلها في غدائر شعرها، تحسُّ بانتشار شذاها في السيارة، ترى السائق الأسمر وهو ينظر إليها في المرآة، تبادره:

"**إلى مطعم الشلال**".

ثمانية أشهر وهما يلتقيان كلَّ يوم، يمضيان معاً ساعات وساعات، في الصباح أو المساء، في الثلج المنهمر كانا يلتقيان، تحت المطر كانا يلتقيان، يسران معاً، ساعات وساعات تحت مظلّة واحدة، يداً في يد.

أحسّت بالحرّيّة يوم خرجت من المحكمة مطلَّقة، واليوم تحسُّ بالحرّيّة وهي تودّعه إلى غير لقاء، تغادره إلى الأبد، هذه هي الحريّة الحقيقية، كانت تدرك أن زوجها لن يملكها، إمّا أن يطلِّقها، وإما أن تخونه. أما هو فقد أدركت أنه سيملكها، ولذلك قرّرت أن تتركه، لم يكن اتخاذ القرار سهلاً، لقد امتلك قلبها.

لن تضعف، ولن تهن، ستكون سيدة نفسها، لن تفقد حريّتها.

ثمانية أشهر مرّت، من خريف إلى شتاء، إلى ربيع، إلى بداية صيف، ثمانية أشهر ما نطق أحدٌ منهما بكلمة حب، كانا يحسّان أنها غير كافية ولا معبّرة، كانا يعيشان معاً ما هو أعمق وأبعد وأغنى. أربع ساعات، أو خمساً، أمضياها معاً على شاطئ البحر، شمس البحر أدفأت جسديهما معاً، موجات البحر أثارت فيهما معاً رعشة واحدة، ومع ذل ما لمس يدها، وهما يسبحان معاً أحسّت أنه لا يتعامل مع جسدها، وإنّما مع روحها، مع قلبها، شعرت بقوّته، رجال

كثيرون كانت ترى في عيونهم فحيح الشهوة، تحسُّ أنّهم لا يرون فيها غير الجسد، حتى زوجها نفسه، أما هو فلا.

تدفع للسائق أجرته، وتنْزل.

تعدو على الرصيف إلى مطعم الشلال، الأضواء المتلألئة عند ساعة الغروب تبهجها مثل طفلة صغيرة، تحس بنسمات صيفية ناعمة، تقعد وراء منضدة على رصيف المطعم، تضع ساعديها على المنضدة، تسند ذقنها إلى أصابع يديها المتشابكة.

ساعة الغروب كانت أجمل الأوقات بالنسبة إليهما، كانا يعيشانها معاً، ولا سيما يوم الرابع عشر من الشهر، وهما يتأملان معاً القمر الطالع من الشرق، والشمس تغيب من الغرب.

ستعيش الآن ساعة الغروب وحدها، بل لن تعيشها، ستشرب فنجان قهوة، وستراقب الناس، وهي على رصيف المطعم.

النادل يقدّم لها كأس ماء مثلّجة، تطلب فنجان قهوة، تفكّر في الاتصال هاتفياً بصديقتها هدى، طوال ثمانية اشهر لم تحدث عنه أحداً، سوى صديقتها هدى.

ما كانت تتوقع أن تعشقه، أو تسهر لأجله، تفكّر فيه، تعده، تنتظر لقاءه، تقلق، تأتي إلى الموعد، فيلتقيان معاً في الطريق، ما كانت تفكّر في عشقه، أو عشق رجل آخر، ولكنّها عشقته، ووقعت – كما يقال – في هواه.

في بداية تعارفهما قالت له: "قلبي حجر، لا تؤثر فيه الكلمة الحلوة"، وبالأمس قالت له: "بين يديك لان قلبي فأصبح ماءً دافئاً"، ليتها ما عرفته أو ما تعرّفت إليه.

التقيا أوّل ما التقيا صديقين، وقد عزما على أن يبقيا معاً طوال العمر، صديقي، تبثّه همومها، ويحدّثها عن مشكلاته.

أكّد لها في أول لقاء أنه سعيد في بيته، مع زوجته وأولاده، ولا ينقصه شيء، وأنّ لقاءه بها ليس سوى توطيد لصداقة، وأكّدت له أيضاً أنها تنظر إليه مثلما تنظر إلى أب أو أستاذ أو صديق كبير.

يأتي النادل بفنجان القهوة، يضعه أمامها، تشكره.

هو يفضّل الشاي، ما جاملها قط، دائماً يطلب لها القهوة، ويطلب لنفسه الشاي، بصمت يدخّن، يطول صمته، لا يظهر عليه القلق أو الانفعال أو الاضطراب، يتصرّف أحياناً ببرود، وأحياناً بمرح، يعلّق بسخرية على همومها التي تراها كبيرة، والتي يراها صغيرة.

هو في الخمسين، وهي دون الثلاثين بقليل، كان يأتي إلى الموعد، في أمسيات الشتاء الباردة، مثل عاشق شاب، يصل في الوقت المحدّد، مرفوع الهامة، عريض الكتفين، متألق الوجه. ما أشعرها قط أنه أكبر منها، أو أكثر منها خبرة أو حكمة أو حنكة، وأحياناً كانت تحس أنه في عمرها، أحياناً تعلّق على كلامه بسخرية، فيرد بسخرية بريئة، من غير غضب، يمازحها، ويقبل مزاحها.

كانا يعبران الشارع معاً، فأتت سيارة مسرعة، فأمسك يدها، شدّ عليها، ظلّ ممسكاً بها، استراحت يدها الصغيرة الناعمة إلى يده الكبيرة الدافئة، ارتعشت، سرى الخدر إلى جسمها، حاولت سحبها، فشدّ عليها بقوّة، فاستسلمت.

عند نهاية كلِّ لقاء تحس أنه اللقاء الأخير، لا يضعان موعداً للقاء جديد، يفترقان بتلويحة من اليد، وفجأةً تجد نفسها في اليوم

التالي تتصل به عند نهاية الدوام في الهاتف، تسأله إذا كان لديه عمل في المساء، فيجيب: "نعم، لديّ موعد معك"، ويلتقيان.

أحياناً يتّصل هو بها في مقر عملها، أو في البيت، حين يتّصل بها في البيت لا يطلبها باسمها الحقيقي، منحها اسماً جديداً: "أمل"، أحبّت الاسم، فرحت به، عاشت له.

لا يعرف اسمها الجديد سوى صديقتها هدى، أحياناً يطلبها بالهاتف عند صديقتها هدى، تخبره أنّها ذاهبة إلى زيارتها مساءً، فيتّصل بها.

أما في البيت فكلٌّ من يلتقط السمّاعة يقول له: "آسف، غلط، ليس عندنا أمل". وتقعد بعد ذلك هي جانب الهاتف، ويرن ثانية، ترفع السمّاعة، فيناديها: "أمل"، وتجيب: "نعم"، كلمة، وكلمة أخرى، وينتهي الاتصال، حسبها سماع صوته، وحسبه سماع صوتها.

ولكن كيف تحوّل ذلك كلّه إلى عشق؟! لا تدري، ما باحا قطُّ بكلمة حب أو عشق أو هوى، ولا تصرّفا قطُّ كما يتصرف المحبون أو العشاق، لعلّها لذلك أحبّته، لا، هي ما أحبّته قطّ.

فنجان القهوة بين يبدها، ترقبه في صمت.

لا، كل شيء انتهى، فلتشرب القهوة.

تحس بوقوف سيارة أجرة إلى جانب الرصيف، باب السيارة يغلق، هل جاء إليها؟!

حدّثته مرّة أنّها كانت تقصد دائماً مطعم الشلال وحدها قبل أن تتعرف إليه، هل جاء ليؤكّد لها أنه في حاجة إليها ولا يستطيع

الاستغناء عنها؟ لا، ما ضعف قط، ولا تخاذل، وما أبان عن شعوره أبداً، كان دائماً صلباً، عشقته صلباً.

وتلتفت، هو، يطلُّ عليها بقامته السامقة، ووجهه الطلق، ولكنّه مضطربٌ قليلاً، أول مرة تراه مضطرباً.

هل جاء ليثأر لرجولته، فيؤكِّد لها أنّه هو الذي تخلّى عنها ولا يرغب في لقائها، ولكنّه ما أساء إليها قط، ولا يتوقع أن يفعل هذا؟!

يقعد أمامها، يشير إلى النادل، يطلب فنجان قهوة وكأس شاي، يتصرّف بعفوية، كأنّ شيئاً لم يحدث، كأنّها لم تودِّعه مؤكِّدةً له أنّها لن تراه بعد اليوم ولن تتصل به.

"**هل تعرفتِ إلى شاب؟**".

السؤال يصعقها، ما توقعته، ولكنّها فرصة مواتية، يمكنها أن تقول نعم، ولكنّها ما كذبت عليه قط، هل تكذب عليه هذه المرة؟

"**ولِماذا؟ هل يسرّك تعرُّفي إلى شاب؟**".

"**نعم، على شرط أن يتقدّم إلى خطبتك ويتزوّجك**".

ويصمت قليلاً، ثم يضيف:

"**يسرّني ذلك لأجلك، لمستقبلك وسعادتك، ولكنّه يؤلمني**".

النادل يحضر لهما القهوة والشاي.

يتابع كلامه بهدوء:

"**إذا تعرّفت إلى شابٍّ، على ذلك الشرط، فلك الحق كل الحقِّ في اتخاذ القرار بتركي وعدم اللقاء بي**".

دائماً كلماته منتقاة، محسوبة، لا إساءة فيها، يكلِّمها وهو ينظر إليها، غير هيّاب ولا قلق ولا مضطرب، عيناه لا أحد يستطيع معرفة أعماقها.

"**لا، ما تعرّفت إلى أحد**".

وبثقة كبيرة يقول لها، وهو يبتسم:

"**إذاً، سنلتقي**".

"**لا، لن نلتقي بعد الآن**".

ترشف القهوة، تحاول إخفاء قلقها، ثم تندفع قائلةً:

"**بصراحة، أجد نفسي منساقةً إليك، مندفعة، ما عدت أملك نفسي، علاقتنا كبرت، أصبحت أكبر مني، أحس نفسي ضعيفة**".

ويتكلّم بهدوء، مثل مفاوض سياسي:

"**لنعد مثلما كنّا، صديقين، اتركي المشاعر جانباً**".

اتركي المشاعر جانباً، لماذا لا يقول لها أطلقيها، عيشي حبّك، كوني معه وله، وليذهب الحلم بالبيت والزوج والأولاد إلى الجحيم، وليكن هو وحده كل شيء، على الرغم من الشيخوخة والشيب.

دائماً يكب ما في نفسه، يسيطر على مشاعره، لا يبوح بشيء، قوي عزيز عظيم، لهذا عشقته، لا يضعف، ولكنّها لا تريد أن تستسلم.

"**قراري لن أتراجع عنه**".

يرشف آخر ما في كأسه من شاي، يلحظ فنجانها، ثم ينادي النادل، وبهدوء وأناقة يدفع له.

ينظر إليها، وبثقة كبيرة يقول لها، وهو يبتسم:

"**تلتقي غداً، كالعادة، السابعة مساءً**".

ينهضان معاً، تسير إلى جانبه، تهمس له:

"**سأتصل بك غداً في الهاتف عند نهاية الدوام، كالعادة أيضاً، ولكن، إمّا لتثبيت الموعد أو إلغائه**".

تشير إلى سيارة أجرة، تدخل فيها، وهي تقول له:

"**وداعاً**".

ويرد:

"**بل إلى اللقاء**".

***

عفاف

اندفع معظم الموظّفين في الدور الثالث من المديرية إلى غرفة المحاسب، تاركين مكاتبهم، ووقف أكثر المراجعين مقهورين لترك الموظّفين أعمالهم، ومضى بعضهم من أصحاب الفضول، إلى غرفة المحاسب لاستطلاع الأمر، وخرجت بعض الموظّفات، وتجمّعن في البهو، وأخذن يثرثرن، ومضى بعضهنَّ الآخر إلى غرفة عفاف.

وبعد بضع دقائق نزل بعض الموظّفين من الدور الرابع، كما صعد آخرون من الدور الثاني والأول، وكان بين هؤلاء وأولئك بعض المراجعين أيضاً.

كل شيء كان متوقَّعاً مثل توقُّع اشتعال غاز متسرّب، ولكن التوقيت لم يكن متوقّعاً، كما لم يكن متوقّعاً أيضاً الشكل الذي حدث فيه ما حدث.

حوالي الساعة الواحدة دخل عماد، الموظّف في الديوان، على سميح المحاسب، ليقول له فجأة:

"**لِماذا دخلتَ على عفاف؟!**".

ويجيبه ببساطة:

"**دخلتُ عليها في عمل**".

ثم يردّ عليه بحدّة:

"**ولِماذا سؤالك أنت؟!**".

ويصيح به عماد:

"**إذا دخلتَ عليها مرّة ثانية كسرتُ قدمك**".

وما كان من سميح إلا أن قال ساخراً:

"**وماذا تفعل إذا قعدتُ عندها طول النهار؟!**".

فردّ عليه عماد:

"**أشرب دمك**".

وعلى الفور قفز سميحٌ من وراء مكتبه، وهجم على عماد، فتلقّاه عماد بيسراه، وطوّق بها عنقه، ثم سدّد إلى وجهه لكمةً أدمت أنفه، ومع وصول أول الموظفين إلى المكتب كانت قبضة سميح قد غاصت في أحشاء عماد، فأرخى قبضته عن عنقه، وانثنى نحو الأرض، يغالب الألم الشديد، ثم نهض ليهجم على سميح. وفصل بينهما اثنان من زملائهما الموظّفين، وهما يتبادلان الشتائم وعبارات التهديد، ويندفع كلٌّ منهما نحو الآخر، ولكنّ دخول باقي الموظّفين إلى المكتب كان يحول دون وصول أحدهما إلى الآخر.

***

وفي غرفة المحفوظات كانت عفاف تنشج وتبكي، وقد تجمّع من حولها بعض زميلاتها، وهي تردد:

"**والله مخطوبة، ولكن لا أحد يصدّق**".

وتعلّق زميلتها أمل:

"**حسنك فتّان يا عفاف، ما باليد حيلة**".

وتضيف عفاف:

"**والله بريئة، لا علاقة لي بالخصام، كل الزملاء عندي سواء**".

وتضيف رجاء:

"**ولكن منذ زمن سمعنا بتنافس سميح وعماد في خطبتك**".

وتعود عفاف إلى القول، وهي تجهش في البكاء:

"**والله مخطوبة، مخطوبة يا ناس**".

وتعلّق زميلتها نوال ببرود:

"**قبل مجيئك ما حدثت في المديرية مشاجرة من أجل واحدة من الزميلات**".

وتصيح بها عفاف، وصوتها يتهدّج:

"**ما قصدك يا نوال؟!**".

وترد عليها نوال ببرود أشد:

"**أنا لا أقصد أي شيء، ولكن ما مضت عليك سنة حتى تنقّلت أربع مرّات، من الآلة الكاتبة، إلى الديوان، إلى الحاسبة، إلى المحفوظات، ما بقي غير أن تصبحي سكرتيرة المدير**".

وتنفجر عفاف في غضب شديد:

"**هذه كلها أوامر المدير يا نوال، هو الذي كان ينقلني**".

وتترك مكتبها، وتندفع نحو الباب، وهي تصيح:

"**أنا ذاهبة إلى المدير لأقدّم استقالتي**".

***

وفي البهو يهمس أحد المراجعين لمراجع آخر:

"**هذه هي عفاف**".

فيعلّق المراجع:

"**تستحقُّ مثل تلك المشاجرة، وأكثر**".

***

ويخرج رئيس الديوان من غرفته، ليصيح بالمراجعين:

"**هيا، انتهى العمل اليوم، تعالوا غداً**".

ويعلّق أحد المراجعين:

"**ولكنّ الساعة ما تزال الواحدة والربع؟**".

ويردّ عليه رئيس الديوان:

"**وهل في إمكان زميلتنا العمل وهي في مثل هذه الحالة؟!**".

ويعلّق أحد المراجعين:

"**ولكنّ العمل ليس كله عندها**".

ويرد عليه رئيس الديوان مرة أخرى:

"**هذا صحيح، لكن كلنا في المديرية هنا زملاء، ونحن أعصابنا أياً انهارت، هيا، اذهبوا اليوم، وتعالوا غداً**".

ويرجع الموظّفون إلى مكاتبهم كسالى متراخين، وهم يتهامسون، وكلٌّ منهم ينظر إلى ساعة يده، يترقّبون نهاية الدوام.

ويستدعي رئيس الديوان إلى مكتبه كلاّ من سميح وعماد، وبعد قليل من اللوم والعتاب يتعانقان، ويقدّم لهما رئيس الديوان الشاي.

***

ويهمس جميل، الموظّف في قسم الأضابير، لزميله عدنان:

"**هذه المرة ستنتقل عفاف إلى المستودع في الدور الأول**".

ويرد عليه عدنان:

"**لا يا جميل، أنت لا تعرف أساليب المدير، هذه المرة ستنتقل إلى فوق، ستصبح سكرتيرة المدير**".

"**لا أصدّق**".

"**بعد قليل تسمع، هذه هي أصول اللعبة**".

***

وفي غرفة الصادر والوارد تميل سناء على زميلتها هدى، لتقول لها:

"**هل صدقت أنها خطوبة؟**".

"**لا، لم أصدق**".

"**وأنا أيضاً، لو كانت حقاً مخطوبة لجاء خطيبها إلى المديرية ولو مرة في الشهر، أنا خطيبي كان كلَّ يوم يأتي إليّ في المديرية، أو ينتظرني خارجها**".

"**لو كانت حقا مخطوبة لقالت من هو خطيبها، أكثر من مرة سألناها، وما كانت تذكر عنه أيَّ شيء**".

"**أنا لا أصدِّق أنها مخطوبة**".

"**وأنا لا أصدق**".

***

وفي غرفة المدير، تقعد عفاف أمام المكتب الفخم، وهي ما تزال تُنشِجُ وتبكي، لتقول بصوت تقطعه شهقات حادّة:

"**أرجو قبول استقالتي**".

وبهدوء، يكلِّمها المدير، فيقول:

"**اسمعي يا عفاف، أنا سأريحك من كل هذا العناء**".

"**وكيف؟!**".

"**أنا سأخطبك**".

"**لِمن؟!**".

"**لنفسي**".

"**ولكنّي مخطوبة، وأنت متزوّج**".

"**أنا لم أقل سأتزوجك، قلت سأخطبك**".

وتخرج على الفور من مكتب المدير.

***

تدخل غرفتها والدموع تسيل على خدّيها، تلحق بها بعض زميلاتها، يحطن بها، وهي تجمع أشياءها من مكتبها، وتضعها في حقيبتها، وتتهيّأ للخروج، وهن يسألنا:

"**ماذا قال لك؟**".

وتجيب:

"**عرض عليّ الخطبة**".

وتنهال عليها التعلقيات:

"**كما قلت لك، حسنك فتّان**".

"**يا للخبيث، عنده زوجة وأولاد، كذّاب، ومخادع**".

"**أنت محظوظة، تزوّجيه، وألغي خطبتك**".

"**يخطبه الشيطان ويأخذ عمره، استقيلي واتركي العمل**".

"**هذا جنون، اقبلي الخطبة، اضحكي عليه**".

وتحمل حقيبتها الصغيرة، وتمضي نحو باب الغرفة.

***

في البهو يقابلها رئيس الديوان فيسألها:

"**إلى أين يا عفاف؟! ما تزال هناك نصف ساعة للانصراف**".

وتجيبه:

"**سأترك العمل**".

"**وهل وافق المدير على استقالتك؟**".

"**لا**".

"**القانون لا يسمح لك**".

"**مهما كلَّف الأمر، سأترك العمل**".

"**لا يا عفاف، لا تكون طائشة، أنا أعرف أنّك بحاجة إلى الراتب، وأمّك وإخوتك الصغار بحاجة إليك، لا بأس، انصرفي الآن، ولكن تعالي غداً**".

عند الباب الخارجي لمبنى المديرية تقف عفاف أمام غرفة الحارس العجوز: أبو صبحي، يطلّ عليها من نافذته، يتكلّمان معاً لدقائق، ثم يخرج لوداعها.

***

فور خروجها خروجها من المبنى يدخل عبد الله المراسل العجوز إلى غرفة الحارس أبو صبحي، وقد رآها من قبل واقفةً تكلِّمه، فيسأله:

"**هل حدّثتك عفاف بما حصل؟**".

"**سمعت كل شيء قبل أن تحدّثني هي بنفسها**".

"**وما رأيك؟!**".

"**كل ما جرى كنت أتوقّعه، بل كنت أتوقّع الأسوأ**".

ويدهش عبد الله، فيسأل:

"**وكيف، يا أبو صبحي؟!**".

فيجيبه وهو يصبُّ له كأساً من الشاي:

"اسمع يا عبد الله، والد عفاف، الله يرحمه، كان صديقي، توفِّي وهي في الإعدادية، والعام الماضي نالت الشهادة الثانوية، هي أكبر إخوتها، وعليها أن تعمل لتعليمهم، أنا بنفسي ساعدتُ على توظيفها في المديرية".

ويأخذ عبد الله رشفة من كأس الشاي، ثم يعلِّق:

"إذاً، أنت جنيت على البنت".

ويرد عليه أبو صبحي متسائلاً:

"كيف تقول هذا الكلام يا عبد الله؟!".

"أنت نفسك تعرف سوء أخلاق المدير، وترى الفساد العامّ في المديرية، وتعرف أيضاً جمال عفاف، أنا عجوز دهشتُ لَمّا رأيتها أول مرة".

وبهدوء، يتكلَّم أبو صبحي، وهو يشترك مع عبد الله في ارتشاف الشاي:

"اسمع يا عبد الله، أنا وأنت في هذه المديرية منذ أربعين سنة، هل تذكر كم من مدير جاء، وكم من مدير ذهب، هل بقي منهم أحد؟!".

"لا".

"هذا المدير سوف يذهب، مثلما ذهب غيره من قبل".

"ولكن، إلى أن يذهب المدير لا نعرف ماذا سيحصل، ولا نعرف كيف سيكون المدير الجديد، والفساد عمّ المديريّة كلّها، وما عاد من الممكن إصلاحها".

"**لا يا عبد الله، الفساد سببه هذا المدير، كلُّ الموظّفين بخير، ربّما كان فيهم واحد أو اثنان من الفاسدين، ولكن كلُّ شيء يمكن إصلاحه**".

وتمر هنيهة صمت، يتأمل فيها أبو صبحي كأس الشاي، من غير أن يرشف منها شيئاً، يرسل زفرة طويلة، ثم يسأل:

"**هل تعرف يا عبد الله الشهادة المطلوبة لمنصب المدير العام؟**".

"**لا والله يا أبو صبحي، ولكن أظنُّ أنّها شهادة الحقوق**".

"**هذا صحيح**".

ويعلّق عبد الله:

"**ولكن سمعت أمس عادل وهو يقول أنّ المدير لا يحمل شهادة حقوق**".

يهز أبو صبحي رأسه، وهو يقول:

"**وهذا صحيح أيضاً**".

وتمر هنيهة صمت أخرى، أبو صبحي يحمل كأس الشاي بجمع يده، يشدّ عليها قبضته، يرشف منها بحدّة، وهو يحدّق في عيني عبد الله، ثم يقول:

"**اسمع يا عبد الله، عفاف انتسبت هذه السنة إلى كليّة الحقوق**".

يشير عبد الله برأسه معبّراً عن شعوره بعدم الجدوى، ولكن أبو صبحي يتابع حديثه قائلاً:

"**ولكن في علمك، ابني حسين في السنة الرابعة في كلية الحقوق، وسيتخرج هذه السنة**".

عبد الله يفتح عينيه مدهوشاً، وأبو صبحي ما يزال يتكلّم:

"**وليكن في علم أيضاً: عفاف مخطوبةٌ لحسين**".

تتسع حدقتا عبد الله، يضع يده على كتف أبو صبحي، ثم يهزُّه بقوّة، ثم يمضيان في ارتشاف الشاي معاً.

في صباح اليوم التالي تدخل عفاف إلى المدير بخطوات واثقة، تمرُّ بغرفة الحارس أبو صبحي، كان في انتظارها، تنظر إليه، يهزُّ رأسه بهدوء.

وتمضي إلى الداخل، تصعد الدرج إلى مكتبها، مشدودة القامة، رافعة الرأس، وعلى فمها بداية ابتسامة حالمة.

***

الموظَّف الصغير

الأفق لاهب، والشمس تسقف فيه، وشوارع المدينة مختنقة بالحر والغبار والدخان، زجاج النوافذ يعكس لون الاحتراق، وضجيج السيارات وصخبها حبال تلتفت على العنق والصدر واليدين، والأرصفة تعجُّ بالغادين والرائحين، وكأن الناس كلهم خرجوا من بيوتهم مختنقين ، والسيارة تخترق بحيرة اللهيب المستعر إلى الحي الغربي، حيث الأفق هناك أكثر اتقاداً.

ليت السيارة لا تصل، وليت الطريق تطول وتطول، وليت إشارات المرور كلها حمراء، لا تتغير، ولكن كان لا بد في النهاية من وصول السيارة إلى المبنى.

وعلى الرصيف مسحت جبينه نسمات صيفية ناعمة، وتمايست أشجار، وكان من الأحرى به أن يحس بالانشراح في الشارع العريض، ولكنّه أحس بمزيد من الاختناق، وقد حلّت عتمة المساء، فتألقت مصابيح الشارع كاللآلئ، ولكنّه كان يراها سهاماً تحرق جفنيه.

التفت إلى أمه، وقال لها:

"**أنا غير مقتنع**".

وردّت:

"**أنا أعمل لمصلحتك وأنت لا تقدّر**".

وتقدّمت تجرُّ شيخوختها، وضغطت على جرس الباب، ولم يطل الانتظار، ففتحت لهما سيدة لا تقل عن أمِّه عمراً، ولكنها أكثر بهاء وقوة، وكأنّ الأيام لم تنل منها شيئاً.

وقادتهما إلى غرفة استقبال واسعة، تتألف من غرفتين، بينهما باب واسع مفتوح، وقد فرشت كل غرفة بنمط من المقاعد يختلف عن الآخر، وتدلّت من سقف كلٍّ منهما ثريا أحالت المكان إلى نهار ساطع، وعلى الرغم من رحابة الغرفة التي تفوق مساحة داره كلِّها، أحس بالضيق والاختناق، والأضواء الساطعة تحاصره، وتمحو ظلّه.

واتّخذ مكانه في ركن من مقعد عريض، ذكّره بما يراه في التلفزيون من قاعات استقبال الرؤساء، ووجد على يمينه هاتفاً، مقبضه من العاج، فتساءل هل هو للاستخدام الفعلي؟

وكرّرت السيدة ترحيبها به، فردّ عليها بوجل واقتضاب، وقد أحسّ في عينيها أَلَقَ البهجة والسرور ودَفْقَ الإعجاب به والرضا عنه.

واغتنم فرصة اعتذارها وخروجها، فالتفت إلى أمه، وأشار إليها، مؤكّداً رفضه واستنكاره، ثم أخذ يبحث عن نافذة يرى منها أفق المدينة المختنق، فوجد الستائر مسدلة، فأيقن أنه قد عزل عن العالم في قبر من فضة.

ومن الباب الذي خرجت منه السيدة، وبعد بضع ثوان، دخلت صبيّة دون العشرين، ممشوقة القوام، شعرها الأشقر مرسل على كتفيها، دنت منه، نهض إليها، مدّت يدها فصافحها.

لا تقلقي، لا تضطربي، أعلم أنك خرجت إليَّ كارهة أو مضطرّةً أو مستسلمة، أعلم أنك أمضيت ساعة قبل قدومي أمام المرآة، ليس

ذنب، ليتني ما جئت في الموعد، ليتني تأخّرت، لقد جئت إليك منساقاً، بل مسوقاً، أمي أعجبت بك، وأبوك وافق.

ثم مدّت يدها إلى أمه، فصافحتها، واختارت موضعاً وسطاً، بينه وبين أمِّه.

ويُفتح الباب نفسُه، ويدخل الرجل الذي كان قد استقبله في الزيارة السابقة، وتدخل في إثره زوجته، ينهض إليه، يحيّيه، ويقعد الرجل إلى جانبه هو وزوجته.

الرجل في الستّين، ولكنّه قويٌّ وشديد، في عينيه الأبوة والقوة، من الواجب أن يناديه "يا عمي"، وأن ينادي السيدة التي إلى جانبه "يا زوجة عمّي"، ولكن بماذا ينادي الصبية؟

رشيقة وحسناء، هادئة ومهذّبة، لا تلتفت ولا تتكلّم، ربّما لو رآها في الشارع لفتن بها، قد يعشها لو تعرّف إليها في مكتبه، بل من المؤكّد أنّه سيعشقها لو التقاها وحدها في حديقة أو رحلة أو قطار، ولكن لا يدري لِماذا يحسُّ نحوها هنا بالحياد، بل يعطف عليها، ويشفق، يراها دمية للعرض داخل قفص من زجاج.

وهي؟! لا يدري عنها شيئاً، هل هي موافقة؟ أم هي على رأي أمِّها وأبيها؟ ليته يلتفت إليها ويسألها بصراحة: "هل أنت حقيقة موافقة؟".

حديث هادئ عن الجو الحار، ولكن الصيف موشك على الانتهاء، هي الأيام الأخيرة للصف، ومن المألوف أن يشتد فيها الحر، وتقوى وطأته وتشتد، ثم ينقشع، ويهجم البرد، الشتاء هو موسم الخير والعطاء.

تلميحات ذكيّة من أمه إلى الرغبة في الإسراع، واستجابة من الرجل وزوجته، والصبية صامتة، مغالطات وتناقضات وتعريضات وإشارات، حديث خانق.

وتنهض الأم، تلحق بها البنت، وفق إشارة خفيّة، ويتحدّث الأب بهدوء:

"**أنا أعرف يا بني أنّك موظف، والموظّف في هذه الأيام دخله محدود، ولكن كل شيء من الممكن أن يتغير، كثير من الموظفين طوّروا أنفسهم، المستقبل لنا، المهم أن نعرف كيف نعم**".

ويصمت، ثم يلتفت إليه، ويشرح له بتبسيط:

"**أنا بدأت برأسمال صغير، وعندي الآن معمل كبير للدهان، وغداً تعمل مع أولادي، عندي سبعة، وابنتي هي الثامنة، ستشاركها في حصّتها، وسترى الأرباح، القرش يجرُّ عشرة**".

ويمتد الحديث ويمتد، دهانات وسطول وأصباغ، وألوان: حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء وسوداء، يمكن صبغ كل شيء بها، ما من شيء لا يمكن صبغه، ليس بالشعر فقط، بل الدماغ أيضاً، غداً تصبح مثله تاجراً كبيراً، وتلوّن الدنيا باللون الذي تريد، وأنت أجير أو صانع أو شريك، الموظَّف الصغير يُصبغ فيتحوّل إلى تاجر كبير.

وتدخل الصبيّة، تحمل القهوة، أي قهوة وأي فناجين؟ هل هي من فضة أم من ذهب؟ وهل هي الهال خالصاً أم أُحْضِرَ البنُّ للتوِّ من بلاد اليمن السعيد؟ وهي تقدّم القهوة إليك في صينية من لؤلؤ أو عاج، لست تدري، ويداها البضّتان تمتدّان إليك، وهي تنحني، وصدرها أمامك كالبلّور، وقد غيّرت ثوبها، تستطيع كلّ آنٍ أن تبدّل

ثوباً، أي ثوب هو؟ لا تدري من أي تصميم؟ فرنسي أو أمريكي؟ وهل وصل للتو من استوكهولهم أو باريس؟

ويتكلّم الأب بهدوء، وهو القوي:

"**لا بأس يا بني، هكذا هي العادات والتقاليد، أنا أرفضها، ولكن لا بد، من أجل الناس، حولنا دائماً أقارب، وعندنا دائماً أصدقاء وأعداء، ولا شكّ، أنت شابٌّ طيّب ونبيل، أنا لا أريد أيّ شيء، ولكن من أجل الناس، ولذلك، لا بد...**".

وتنثال الأرقام، وتتصاعد للمتقدِّم والمتأخِّر، والأثاث والذهب، وسوى ذلك من النفقات والمصاريف، أكوام وتلال وجبال وأودية وخنادق ووهاد، وأنت بينها تطير، تخفق بجناحي بعوضة أو ذبابة، ومن فوقك القمم المكسوّة بالذهب، ومن دونك الوديان السحيقة المعتمة.

والصبيّة قاعدة، دمية من زجاج، لا تلوي على شيء، صامتة صامتة.

ويعود الرجل القويّ إلى الكلام بعد ارتشافٍ متميِّزٍ للقهوة:

"**ليست مشكلة، كما قلت لك، هي مجرّد كلمات على أوراق مكتوبة، أنت بالطبع لن تدفع شيئاً، ونحن سنشتري لابنتنا داراً في المبنى المجاور، لا نريدها بعيدةً عنّا**".

ويمتدّ بساط الحرير ويمتدّ، وأنت تسير عليه كالأجير أو الخادم، تحمل ذيل ثوب العروس، وتجري في إثرها، لتعمل عندها أو عند أبيها مراجع حسابات على أحسن تقدير.

"**ستكون هديّتي لابنتي يوم زفافها سيارة**".

هكذا تتكلّم الأم، والبنت مطرقة صامتة.

الأميرة من شرفة قصرها تطلّ، فتعشق الموظّف الفقير، فتنزل إليه، تحمل كسوة من حرير، وتدفع له ثمن الحصان الأبيض، يشتريه لها، يحملها عليه، وبها إلى جزيرة الأحلام يطير.

بل هي فرصة العمر، ادخل معمل الأصباغ، اقتحم الأبواب، وهي لك مشرعة، اخترق السُّدف وتربّع على العرش، كن السيِّد الآمر، اخترع صبغاً جديداً، لوّن به العالم كلّه وتلوّن به.

وينظر إلى أمِّه، فيرى على وجهها علائم الرضا، العجوز الطيّبة تبتغي لابنها السعادة بعدما عانت مرارة الفقر وكابدت وحدها لتعيله وتنسيه قسوة اليتم.

الصبيّة صامتة، أمّها صامتة، أمّه صامتة، هو صامت، والرجل القوي وحده مَن يتكلّم، وحده يلوّن بالأسود كلَّ فراغات الصمت الأبيض، الجدران والستائر والثريّا وأمّه والصبيّة والمستقبل والعالم، وحده يخطّ بصوته الكلام الذي يريد، فينطبع أسود عريضاً، مثل توقيع المدير، وحاشيته بقلمه الأسود تقرِّر كلَّ شيء، على طلب الترقية كتب: "للحفظ"، وانتهى كلُّ شيء.

لو أنّا كنّا هنالك في الغاب السحيق، النار تتأجّج، ومن حولها جلست نساء عجائز وصبايا، وبينهم ابنتك أيّها العجوز، لو أنّا كنّا هنالك لكنت أنا وحدي من يتكلّم، ومعي شباب القبيلة، لا أنت: "طاردناه، حاصرناه، والطبول تقرع، قابلناه وجهاً لوجه، وأهزُّ بيدي الرمح، وألقيه في الصدر، ثم أنقضُّ عليه بالسكّين، تنغرس مخالبه في صدري والذراعين، ويفتح أمام وجهي فاه، وأغرز السكّين في

القلب". وحدي من يتكلّم، وابنتك تحدّق بي، ثم أتقدّم منها، والجراح في صدري والذراعين، وعند قدميها ألقي جلد النمر، وبيدي أرفع إليها أنيابه، تعقدها بخيط تزيِّن به صدرها.

ولكن، أنّى لي الآن أن أتكلّم، وأنت هنا وحدك من يتكلّم، المدير هناك وحده من يتكلّم، لا، هذه المرة فقط، أنا من سيقرر، أنا من سيكتب الحاشية ويوقِّع، لا أنت ولا المدير، مع اعتذاري إليكِ أيّتها الصبيّة، انتهى كلُّ شيء.

ويخرج، وأمُّه في الباب ما زالت تثرثر مع أمِّ العروس.

ما أجمل الرصيف والأشجار والشارع والقمر والنسيم، كلُّ شيء حرٌّ طليق، والفضاء رحب، وعتمة الليل تزيِّنها مصابيح الشارع، وهي ترسل النور والحرّ البهيج.

في صباح اليوم التالي يروي لزميلاته وزملائه في المكتب تفاصيل ما جرى، فتنهال عليه التعليقات من أمل ومنى وعماد وصالح، وهم من أجيال وبيئات وثقافات مختلفة.

"**أنت مخطئ، أمّك تريد لك الخير**".

"**والرجل طيّب، وهو يفتح لك أبواب المستقبل**".

"**وابنته، كما يبدو من كلامك، قطّعة ناعمة، ومعها العيش يطيب**".

"**أنت في الواقع تخاف الغنى، ولا تعرف كيف تعيش**".

ويردُّ بحزم:

"**لا، أنا أحب الفقر أكثر**".

ويأتيه الجواب:

"**بل أنت تحبُّ الشقاء**".

ويقفل الموضوع، يعقبه صمت مريب، يتلبّث كالغمام الأسود، ثم تقطعه جعجعة المراجعين والجدل معهم حول التأخُّر في إنجاز المعاملات.

يُمضي يومه كالغريق، يحسُّ باختناق من نوع جديد، يدرك أنّه وحده، ولا يعرف أهو على خطأ أم على صواب؟

وداد وحدها كانت صامتة، تضرب على الآلة الكاتبة، وهي تصغي أو لا تصغي، لا يعرف، هل يعنيها الأمر في شيء؟ أم لا يعنيها البتّة؟

وهو يغادر مبنى المديرية، عند نهاية الدوام، تقترب منه وداد، وتهمس له:

"**ماجد، أنت على صواب**".

***

القطار.. والسمكة الذهبيّة

– ١ –

يخرج من غرفة المعتمد الضيِّقة، وهو يزفر قبضته مغلقةً على الراتب، يمسك بقوّة، يشد على أصابعه المتشنّجة، عيناه زائغتان، الزحام عند المعتمد شديد، والغرفة ضيِّقة.

يمضي إلى غرفة المدرسين، يسحب كرسياً، ويقعد أمام الطاولة التي لم يمسح عنها الغبار منذ زمن.

يفتح النقود، يعدّها.

لا أعرف كيف نقص الراتب خمس عشرة ليرة؟ أنبّه المعتمد على النقص، فيجيب: "هذا هو الجدول أمامك، ولا خطأ فيه"، وأحاول محاورته، فيقول:

"**راجعني الأسبوع القادم**".

أنا أعرف، لا فائدة، حظ نكد.

ويدخل عليه الآذن أبو محمود.

"**مرحباً أستاذ حامد**".

"**أهلاً أبو محمود**".

ويخيِّم صمتٌ ثقيل، الآذن يتظاهر بمسح الطاولة.

الآن قبضنا الراتب، لم يكد يعرق داخل يدنا.

"**كم حسابي يا أبو محمود؟**".

"**ثمانٌ وعشرون ليرة**".

"**هكذا، وبسرعة، ومن غير النظر في ورقة أو دفتر؟**".

"**أنا أحفظ حسابك، وحساب كلِّ المدرّسين**".

يحس بالاختناق.

ثمانٌ وعشرون ليرة مبلغ تافه حقيقة، ربّما كان ثمن فنجانين أو ثلاثة في مقهًى عادي، بل ربَّما كان ثمن فنجان واحد في أحد الفنادق، كما أسمع.

ولكن، في الواقع، لا أعرف لِماذا أضيق ذرعاً بهذا المبلغ؟!

تبّاً لهذه الحياة، مبلغ تافه أغصُّ به، وأكاد أختنق.

"**تفضّل يا أبو محمود، هذه ثلاثون ليرة**".

ويمدُّ أبو محمود يده في جيبه، يبحث عن ليرتين يردّهما إليه، فيقول له:

"**احتفظ بالبقيّة لنفسك**".

"**شكراً، هل تشرب الآن شيئاً؟**".

"**لا، شكراً، أنا خارج بعد قليل**".

أبو محمود يطوي الخرقة التي كان يمسح بها الطاولة ويخرج.

الأستاذ حامد يرسل زفرة طويلة، ثم ينظر في ساعة يده.

الساعة الحادية عشرة والنصف، انتهت دروسي لهذا اليوم، إلى أين سأذهب؟ ما أتعس حياة الموظَّف؟! ماذا سأفعل في البيت؟ ليس أمامي سوى المرور بالسوق وسداد الديون، وشراء بعض الحاجات، ويطير نصف الراتب.

وبعد أسبوع، أو عشرة أيام، لا بد من أن أستدين من جديد.

ويدخل عليه الأستاذ أمجد:

"**مرحباً أستاذ حامد**".

"**أهلاً**".

"**ما بك؟ لِم أنت مستاء؟!**".

"**لا أعرف؟!**".

ويسحب الأستاذ أمجد كرسياً، ويقعد مقابله.

"**أنت في أول الشهر يا أستاذ حامد، ومنذ قليل قبضت راتبك**".

"**آخر الشهر أحسن من أوله**".

"**غير معقول؟**".

ويرسل الأستاذ حامد زفرة طويلة، ثم يقول:

"**على الأقل في آخر الشهر أعرف أنه لا نقود معي، فأتدبّر أمري، ولكن في أول الشهر معي نقود، ولا أعرف كيف أتصرف بها، هي ليست لي، ستذهب كلُّها سداداً للديون**".

ويدخل عليهما الأستاذ سمير، شابٌّ في أوّل حياته الوظيفية.

"**مرحباً حضرات الأساتذة**".

"**أهلاً أستاذ سمير**".

ويناديه الأستاذ حامد:

"**تعال إلى جانبي**".

ثم يمد يده إلى جيبه، ويخرج الراتب، يستلّ منه ثلاثمئة ليرة، يناوله إياها، وهو يهمس له:

"**تفضّل، أستاذ سمير**".

الأستاذ سمير يتردّد في أخذ المبلغ، وهو يقول:

"**أرجوك أستاذ، اتركها معك للشهر القادم، أنا شابّ وليس ورائي حتى الآن أيّة مسؤولية**".

ويهمس له الأستاذ حامد:

"**شكراً، شكراً لك، وعلى كل حال لا تصرفها، احتفظ لي بها، لأنني سوف أستدينها منك مرة ثانية**".

الأستاذ سمير يطوي النقود، يضعها في جيبه، وهو يتكلم:

"**جئت لأخبركم، الشباب متّفقون اليوم على تناول طعام الغداء في مطعم الواحة، فما رأيكم؟**".

يخيّم صمت ثقيل، يقطعه الأستاذ حامد قائلاً:

"**أنتم الشباب كما قلت، لا مسؤولية وراءكم، ونحن وراءنا زوجة وبيت وأولاد، فاعذرونا**".

ويمضي الأستاذ سمير، يغادر غرفة المدرّسين.

الأستاذ حامد يسأل الأستاذ أمجد:

"**هل تودّ البقاء؟**".

"**لا**".

"**إذاً، لنخرج**".

"**إلى أين؟**".

"**لا أعرف**".

ويخرجان، يغادران المدرسة بصمت، الأستاذ أمجد يتكلّم:

"**ما رأيك في الذهاب إلى السوق؟**".

"**لا بأس، ولكن بشرط؟**".

"**ما هو؟**".

"**للتسلية والفرجة فقط**".

– ٢ –

يحتويهما السوق، يغيبان في الصخب والضجيج والضوضاء.

الزحام شديد. الأستاذ حامد ينظر ولا يكاد يرى، يده في جيبه، وهو يمسك الراتب، يشد عليه أصابعه.

ماذا نشتري؟ وماذا لا نشتري؟ الناس يشترون كل شيء، ونحن لا نكاد نشتري شيئاً، لا أعرف من أين يأتي الناس بالنقود.

زحام، ووجوه، وحاجات، وأصوات أصوات.

ويلتفت الأستاذ حامد إلى صديقه، يقول له:

"**أرجوك، تعال نرجع، جئنا لنتفرّج ونتسلى، وها نحن نكاد نجن**".

ويرد الأستاذ أمجد على الفور:

"**صدّقني، فور دخولي السوق كنت سأقول لك تعال نرجع، ولكن لم أرد إحراجك، أنا أكاد أختنق**".

ويرجعان عائدين.

ولكن بعد بضع خطوات، يتوقّف الأستاذ حامد، يقول لصديقه:

"**اسمح لي، سندخل هذا المحل**".

ويشير إلى محلٍّ لبيع الألعاب، وهو يضيف:

"**أشتهي شراء قطار له سكّة وعربات، لولدي أحمد**".

ويدخلان المحل.

البائع يفتح علبة كبيرة، يخرج منها خمس عربات وقاطرة، وسكّة مقطّعة، يصل بعض قطعها ببعضها الآخر، يمسك بجهاز التحكم، يضغط على الأزرار.

القطار يسير، يعبر جسوراً، يدخل أنفاقاً، يتوقّف في محطّات، ثم يعاود الانطلاق.

القطار يزمجر، يدمدم، يصفّر.

وأنا صغير رأيت لدى أولاد عمي قطاراً، التففنا حوله، قعدنا على الأرض، ذهلنا، سألتهم أن أحرّك القطار بنفسي فمنعوني. خرجت مع أمي وأنا أبكي، في الطريق قلت لها: "أريد مثل ذلك القطار"، وردّت: "لا يا حامد، أنت كبير وشاطر، وعندك مدرسة وواجبات، عليك أن تدرس وتنجح، أولاد عمّك أطفال صغار مدلّلون، لا يحبّون المدرسة"، أدركت أنها كانت تودّ لو تقول: "لا يا حامد، أنا لا أستطيع شراء مثل ذلك القطار، أبوك مات ولم يترك لنا شيئاً، وأنت واجبك أن تجدّ وتدرس، لا أن تلعب".

صديقه الأستاذ أمجد يسأل البائع:

"**كم ثمن هذا القطار؟**".

"**مئتان وخمسون ليرة**".

الأستاذ حامد يفاجئه صوت البائع، فيلتفت إلى صديقه، يدعوه إلى الخروج.

الأستاذ حامد والأستاذ أمجد يغذّان الخطا، يستعجلان الخروج من السوق، ودمدمة القطار ما تزال تملأ منهما الآذان.

وهما يسيران، الأستاذ حامد يحدّث صديقه عن القطار الذي رآه في دار عمّه، وهو طفل صغير.

وخارج السوق، يتكلّم الأستاذ أمجد:

"سأحكي لك، وأنا صغير أيضاً، كان عندي سمكة ذهبية من لدائن، كنت أحبّها كثيراً، مرّةً ذهبت مع أبي في سيارة أجرة، رأيت السائق يعلّق أسفل المرآة سمكة ذهبية من لدائن، قلت لنفسي: سأشتري سيارة عندما أكبر، وأعلّق فيها السمكة، ولذلك احتفظت بها، وكبرت وأنا أحتفظ بالسمكة".

ويعلّق الأستاذ حامد ساخراً:

"لا بأس، أنصح لك أن تهديني السمكة، ليلعب بها ابني".

"للأسف، منذ يومين فقط أعطت زوجتي السمكة لابني، ابني في الشهر الثامن، أسنانه بدأت بالبروز، أخذ السمكة، وعلى الفور ضغط بأسنانه عليها، وإذا السمكة تتجعّد وتنثني وتلتوي".

"وتحطّم الحلم".

"الحلم تحطّم منذ ألف سنة".

ويخيِّم صمت ثقيل، وهما يسيران الهوينى على الرصيف، يستمتعان بشمس الظهيرة الدافئة.

وفجأة، يقف الأستاذ حامد، ويقول لصديقه:

"اسمع، سأرجع إلى بائع الألعاب، سأشتري القطار، وليكن ما يكون، سأصوم يومين ثلاثة، سأشتري القطار".

الأستاذ أمجد يمسك يده، ويهتف به:

"لا يا أستاذ حامد، لا تتعجّل، مائتان وخمسون ليرة تشتري بها ثياباً لولدك، تفي بها ديونك".

يصمت، يطرق، يكاد يختنق.

يعودان إلى المشي على الرصيف.

عند آخر الشارع يقفان، الأستاذ أمجد يسأل:

"**هل ستأتي مساءً إلى المقهى لنلعب بالطاولة؟**".

الأستاذ حامد ينظر إليه، ولا يجيب بشيء، فيضيف سائلاً:

"**هل ستعقد في البيت؟ ماذا ستفعل؟ هل ستقرأ في المعلّقات؟**".

ويرسل زفرة طويلة، ثم يتابع كلامه:

"**وأنا طالب في الجامعة كنت أحلم بدراسة الفيزياء النووية، ولكن الآن لا أحلم بشيء، يكفيني أن أرمي زهر الطاولة وأسمع رنّته**".

ويخيِّم صمت ثقيل، وهما ما يزالان واقفين.

الأستاذ أمجد يسأل مرة أخرى:

"**نعم، ماذا قلت؟**".

الأستاذ حامد يرد:

"**عندي مساءً درس خاص، لتلميذي عماد**".

"**لا بأس، تنزل إلى المقهى بعد الدرس، سأكون هناك في انتظارك**".

"**لا، اليوم سيدفع لي والد عماد أجور الدروس عن الشهر الماضي، سأنزل إلى السوق بعد الدرس مباشرة، لشراء القطار**".

ينظر إليه الأستاذ أمجد مدهوشاً:

"**هل عدنا إلى قصّة القطار؟**".

"**نعم، سأشتري القطار، ليس لودي أحمد فقط، بل لي أنا أيضاً**".

ويشد على يده مودِّعاً، ثم يمضي.

– ٣ –

في المساء، الأستاذ حامد يصعد الدرج، يقرع الباب.

عماد يفتح له الباب، وهو طلق الوجه، فرح، على غير عادته.

"**أهلاً، أهلاً أستاذ، تفضّل**".

الأستاذ حامد يدهش.

هل لأوّل الشهر عندهم أيضاً شيء من البهجة؟ لا يعقل؟! الأيام بالنسبة إليهم كلّها سواء، والده تاجر كبير، لا يبالي أول الشهر أو آخره، النقود دائماً تسيل بين يديه.

عماد يخطو أمام الأستاذ حامد، يدعوه:

"**تفضّل، تفضّل أستاذ إلى هذه الغرفة**".

ويقوده إلى غرفة أخرى غير الغرفة التي اعتاد أن يعطيه الدروس فيها، ويدخل الغرفة في إثره، وإذا هي غرفة ألعاب.

حوض لأسماك الزينة، ودرّاجة، وبضع كرات، وأجهزة للتدريب والألعاب، وفي عمق الغرفة طاولة عليها جهاز تلفزيون.

عماد يتّجه إلى عمق الغرفة، يقعد أمام الطاولة، وهو يحدّث الأستاذ حامد:

"**انظر أستاذ، أبي اشترى لي جهاز ألعاب أتاري**".

ويأخذ في اللعب.

وتدخل أمّ عماد، تحيّي الأستاذ حامد

"**أهلاً أستاذ**".

ثم تضيف:

"**أرجو أن تسامح ولدي، فقد اشترى له أبوه يوم أمس ألعاب أتاري، سامحه اليوم فقط، لا أظن أن ذهنه المشغول بالأتاري سيستوعب الدرس**".

وتصمت الأم هنيهة، والأستاذ حامد ذاهل، ثم تضيف:

"**أطفال اليوم لم تعد ترضيهم الألعاب القديمة، نحن الآن على أبواب القرن الحادي والعشرين، علينا أن نجاري روح العصر**".

ويتكلم الأستاذ حامد:

"**لا بأس، لا بأس، أرجو أن تسمحي لي بالانصراف**".

ويغادر الغرفة.

وعند الباب الخارجي يقف، يلتفت إلى الأم، يتردّد، يهمس لها:

"**أودّ، إذا سمحت، التذكير بأن دروس الشهر الماضي قد انتهت**".

وترد الأم:

"**لا تقلق، سنحتسب لك درس هذا اليوم**".

"**لا، لا أبداً، ليس مشكلة، وليس هذا قصدي، أنا أعتبر حضوري اليوم مجرّد زيارة، ولكن..**".

ويتردد، يصمت، ثم يتكلّم:

"**بودّي، لا أعرف كيف اعبّر، أنا أقصد إذا كان من الممكن قبض حساب الشهر الماضي، فقط**".

وترد الأم، وهي تبتسم:

"**آه، الحق معك، ولكن للأسف، أبو عماد سافر صباح هذا اليوم، ولم يحدّثني في هذا الموضوع**".

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

"**على كل حال، الشهر القادم تقبض حساب الشهرين معاً، هذا أوفر لك، وليس في الأمر أي مشكلة**".

***

الضرس الثاني

أصعد الدرج باندفاع، يقول لي صديقي:

"**لا تستعجل**".

لا أعرف ما سر هذا الاندفاع، كأني أود الانتهاء من الأمر فوراً، كأني أخشى أن أتردّد فأرجع، أو كأنّي أريد أن أتثبّت لنفسي أنّي عازم على الأمر، ولست أخشى شيئاً.

وندخل البهو.

الممرّض قابع وراء طاولته، وبين يديه مجلّة، يتصفّحها، لا شيء من علائم الألم أو الانقباض على وجهه، بل هو سعيد، فمه يفتر عن ابتسامة مميّزة.

يحييه صديقي، ثم يقول له:

"**أنا عماد، اتصلت بك في الصباح، حجزت دوراً لصديقي الأستاذ شريف**".

الممرض يرد:

"**نعم، الاسم مسجّل عندي في الكشف، تفضّل، انتظر**".

يضيف صديقي:

"**أجرو إخبار الدكتور سامح**".

"**سأفعل فور خروج المريض**".

وهكذا يرد الممرّض بآلية، على الرغم من افترار فمه عن ابتسامته المميّزة.

وندخل، أنا وصديقي، غرفة الانتظار.

الغرفة ممتلئة، ثمّة مقعد قريب من الباب، هممت بإلقاء نفسي فيه، ولكنّ صديقي سبقني إليه، وأشار إلى مقعد آخر في عمق الغرفة.

كان قد أخبرني أنّ الطبيب صديقه، وأكّد لي أننا سندخل عليه فوراً، ولكن لا يبدو لي الأمر كذلك، فالممرّض استقبله استقبالاً عاديّاً، ولا بد بعد ذلك من الانتظار، ولا بد من المعاناة، وهاهو يقعد عند الباب، ويتركني وحدي، كأنّني في عمق المصيدة، لا أعرف لماذا أودّ لو جلست عند الباب، هل لقربه من غرفة المعالجة؟ أم هل لقربه من الممرّ المؤدّي إلى الخارج؟

هل يشكو كل هؤلاء الساهمين الواجمين من أضراسهم وأسنانهم، لا يبدو لي الأمر كذلك، لا بد أن يكون بعضهم قد جاء مرافقاً لبعضهم الآخر، شأن صديقي، ولكن، لِم هذا الوجود؟ كأنهم في مأتم؟ أو كأنّهم تماثيل من شمع؟!

هذه شابّة، شعرها مرسل على كتفيها، أحمر الشفاه يزيّن فمها الناعم، صدرها النافر يؤكّد أنّها لا تشكو من شيء، لعلّها جاءت لتجميل أسنانها، بل لعلّها مرافقة لأمها التي بجوارها، ولكن تلك العجوز لا تشبهها في شيء، لا أظنّ أنّها أمّها.

إذا كان بعض الحاضرين مجرّد مرافقين، مثل صديقي، فسوف أدخل بعد ساعة على أقلّ تقدير.

صديقي يلتقط مجلة من بين المجلات المتراكمة على منضدة صغيرة تتوسط الغرفة، واضحٌ أنّه لا يقرأ فيها شيئاً، وإنّما يكتفي بالتفرُّج على الصور.

ليس لديّ رغبة في تصفُّح أيِّ شيء.

أجدني وحدي من يتألّم.

الألم يلتمع في الضرس، يضرب الحواس، يستفزّ أعصابي كلَّها، كأنّني قوس مشدودة الوتر، ونصال حادّة أو مثلّمة، لا أعرف، تحزّ في ذلك الوتر، ليلة أمس لم أنم، وددتُ لو خلعته بنفسي، مرّات كثيرة أمسكت به بإصبعين اثنتين، شددته، حرّكته، هززته، ولكنّه راسخ كالجبل.

حقيقة هو في فمي كالجبل، هو محور جسدي كلِّه، مركز وجودي، كأنّي أحس بالعالم كلّه من خلاله، لا أعرف كيف تحوّل فجأة إلى تلك الأهمية، ما كنت من قبل أحس له بوجود، ولكنّه أصبح فجأة كلَّ شيء.

وأسرع مع الصباح إلى مكتب صديقي:

"**أرجوك، خذ إجازة لساعة واحدة، وأسرع معي إلى أيِّ طبيب للأسنان**".

"**لا تقلق، سأتصل الآن بالدكتور سامح، هو صديقي، وسوف أحجز لك دوراً عنده في المساء**".

هكذا يردُّ بهدوء.

أحاوره، أحاول إقناعه بأن نمضي فوراً لخلع الضرس، ولكنّه يطمئنني ويسلّيني، ويروي لي الطرائف، وينشدني بعض الأشعار، فأقول له:

"**أرجوك، ليس هذا وقت المزاح، نفسي لا تشتهي أي شيء**".

وأخرج من مكتبه، وأنا أنتظر المساء.

وهأنذا أنتظر الآن، أيضاً.

أتتبّـه إلـى الحسـناء وهـي تتفـرّس فـي وجهـي، لا أفهـم لنظراتهـا معنـى، هل هـي تلحـظ ذقنـي غيـر الحليقـة؟ أو شـعري الأشـعث؟ أو صفحة خدّي التي أحسبها متورّمة، ولكن فلتلحظ ما تلحظ، ولترقب ما تشـاء، لا هـي، ولا ألـف واحـدة أجمـل منهـا وأكثـر فتنـة يمكنهـا أن تنسيني ألم ضرسي، بل لا أظنُّ أنّي سأنساه أبد الدهر، ولا أظنُّ أنّي بعد هذا الألم سأشعر بمتعة في الحياة أو أدرك لها أي معنى.

"**ولكن، كيف سيكون خلع الضرس؟**".

سألت صديقي، فأجاب:

"**الأمر بسيط، بعد إبرة البنج لا تحسّ بشيء**".

لم أصدِّقه، قلت بيني وبين نفسي: هو ضعيف الإحساس.

لا أذكـر جيِّداً، الآن نسـيت كـل شـيء، أظـنّ أنـه جمـال الـدين الأفغاني، خلـع ضرسـه فمـات، جدّتي روت لـي مرة أنهـا ذهبـت إلـى الطبيب لتخلع ضرسها الذي يؤلمها، فخلع ضرساً مجاوراً، وظل الألم، بل زاد.

بـاب غرفة الطبيـب يفتح، يخرج رجل، يمضـي فـي الممر، يغادر مـن البـاب الخـارجي، أرقبـه، أرقـب حركاتـه، أحـاول أن أستشـف مـدى الألم الذي عاناه في الداخل، ولكن يبدو لـي أنّه لم يعانِ من شـيء، يبـدو أنّـه لـيس مريضـاً، ربّمـا كـان صـديق الطبيـب، أو لعلـه مـريض يراجعه مجرّد مراجعة.

أتوقّع أن ينهض صديقي ليكلّم الممرّض، لندخل على الطبيب، ألم يعده الساعة السابعة؟ هاهي ذي الساعة تشير إلى السابعة والنصف، إلى متى سأظل أنتظر؟

وينادي الممرِّض اسماً، فينهض أحد الرجال، ويمضي إلى غرفة الطبيب. لو نادى الممرِّض تلك الحسنا لكان استيائي أشد، لا أعرف لماذا؟ ترى ما اسمها؟ لا أسماء هنا ولا شخصيّات، مجرّد وجوه مسحها الألم، فسواها، وساوى بينها، لا شيء سوى الألم، له وحده القوة والمجد والعظمة.

يدي تمتدُّ إلى المجلات، أتناول مجلّة، أقلّب صفحاتها، لا يكاد يستوقفني شيء. مدن تسقط، دويلات تتداعى، شعوب تحاصر، ملوك ورؤساء يزورون بعضهم بعضاً، مؤتمرات وندوات واجتماعات، هنا وهناك، أمور نسمع عنها كلَّ يوم أو نراها، سيارات فارهة، وصور برّاقة لرجال، لا أعرف هل تؤلمهم أضراسهم؟

أين من ذلك كله وجع ضرسي ليلة البارحة؟

وتستوقفني صفحة الصور الساخرة.

مريض على كرسي، طبيب الأسنان ربط ضرس المريض بحبل، شدّه إلى مقبض الباب، وأغلق الباب بقوة، فانخلع الباب، وطار، وظلّ الضرس ثابتاً في موضعه.

مريض على كرسي، طبيب الأسنان شدّ ضرس المريض بحبل إلى سيارة، وتدور عجلات السيارة في مكانها، تحفر في الأرض عبثاً، والضرس ما يزال في موضعه.

مريض تحت شجرة، طبيب الأسنان ربط ضرسه بحبل متين، علّقه على غصن شجرة، وأخذ يجذب الحبل من الطرف الآخر، وإذا هو يشد الرجل المريض، يرفعه إلى أعلى فأعلى، حتى يبلغ به غصن الشجرة، وهو مشدود بالحبل من ضرسه الثابت في موضعه.

طبيب أسنان يتعاون مع خبيرٍ بالمتفجرات على رب أصابع الديناميت إلى ضرس المريض.

هل وجود هذه الصور في هذه المجلة في غرفة الانتظار مجرّد مصادفة؟

وأرمي بالمجلة إلى المنضدة الصغيرة.

أرمق صديقي بنظرة، يشير إليَّ برأسه، ويبتسم.

أحس كأنّه نسيني.

لا بد لي من يومين أو ثلاثة أو أكثر، أمضيها في الفراش بعد خلع الضرس، سأضطر إلى أخذ إجازة، لا أعرف ماذا سآكل بعد خلع الضرس، ولا أعرف كيف سأنام.

ولكن، لنعد إلى شيء من العقل، الطبيب يخلع في اليوم عشرات الأضراس، في العالم كله ملايين الأضراس كل يوم تُخلع، إذاً، الأمر عادي، لم هذه المبالغة، لم هذا الإفراط في الحساسية؟ يجب أن أصبِّر نفسي، يجب أن أتحمّل الألم.

يتوافد مرضى آخرون، الغرفة تمتلئ.

المروحة في السقف تدور، الجوّ خانق، النوافذ مغلقة، الستائر مستدلة، وكأنّنا في عالم آخر، وقد حشرنا في الغرفة حشراً، الوجوه بائسة مكفهرّة، الكل يتطلّع إلى باب غرفة الطبيب، الكل ينظر

الدخول، الصحف والمجلات على المنضدة الصغيرة، جاثمة متلبّدة، لا أحد يريد تناولها، أو مسّها، كأنّها لعنة الألم وسبب شقائه.

الممرّض يشير إلى الحسناء، فتنهض، تخطر في مشيتها، تمضي إلى غرفة الطبيب، الممرّض يغلق الباب وراءها.

أحس بالاستياء الشديد، لا أعرف لماذا؟

أنظر إلى صديقي، فيهزّ رأسه، مشيراً أنْ اصبِرْ

الألم يلتمع في ضرسي، كأنه شفرات تحزّ في العروق.

أحاول التفكير في شيء ينسيني الألم، أذكر راتبي، كما صرفت منه، وكم بقي، أذكر ديوني المتراكمة، أحسُّ بالألم وقد ازداد.

ويشير إليّ الممرّض، أنهض إليه وأنا غير مصدّق، وينهض معي صديقي. الممرّض يقدّم إليّ بطاقة، يطلب مني ملأها. معلومات كثيرة مملّة، الاسم والعمر والمهنة وعدد زياراتي لطبيب الأسنان، وهل ثمّة ارتفاع في ضغط الدم أو زيادة في نسبة السكر أو شكوى من أي مرض آخر.

الممرّض يحدّث صديقي، وأنا أملأ البطاقة، يقول له:

"**مرة، أحد المرضى لديه زيادة في نسبة السكر، ولم يخبر الطبيب بذلك، فخلع ضرسه، وأنت تعرف بعد ذلك النتيجة**".

كلام الممرّض كالمطرقة، يقرع أعصابي، لست متأكّداً، ولكن لا أظن أنّ لديّ زيادة في نسبة السكر بالدم.

باب غرفة الطبيب يفتح، يخرج الرجل الذي كان قد دخل من قبل، وهو يضع يده على خدّه، مصفرَّ الوجه، زائغ العينين.

وندخل غرفة الطبيب.

الدكتور سامح يسرع إلى استقبالنا، يرحّب بنا ترحيباً حارّاً، ثم يعلّق معتذراً:

"**أرجو المعذرة، رأيتم ضغط العمل**".

صديقي يقدّمني إليه، ثم يضيف:

"**أوصيك به خيراً**".

الدكتور سامح يعلّق مازحاً:

"**اطمئن، سأخلع له كل أضراسه وأسنانه**".

ويتركني صديقي وحدي أمام الطبيب، ويخرج.

فور دخول الغرفة كانت روائح البنج والكحول واليود قد احتوتني في مدّها الغامر، فإذا أنا عائم على موجٍ من عالم آخر.

الغرفة بيضاء، هادئة، على كرسيٍّ للعلاج تقعد الحسناء، رأسها ملقًى إلى وراء، وهي تفتح ثغرها، وأمامها ممرِّضة.

إلى كرسيٍّ مقابل، يدعوني الطبيب.

الطبيب شابّ، هو في نصف عمري، وجهه هادئ، ليس جامد الملامح، بل يشعُّ بالعطف والأمان.

آخذ مكاني في الكرسي، أحس كأنه قد صُنع على قدّي، أرخي رأسي إلى وراء، أمدّ قدمي، فوق وجهي يتألق مصباح أبيض.

أستسلم إلى طمأنينة هادئة، أحسُّ بسكون تامّ، أشعر بفيض من النور يغمرني، وأنا مستلقٍ، كل شيء أبيض هادئ، كأنني فوق غمامة بيضاء، على مهادها الناعم كالعِهْن أنام.

ويهمس لي الطبيب، فأفتح فمي، وبأداة بيضاء ناعمة، يقرع على الضرس، ويسأل:

"**هذا هو؟**".

وأرد:

"**نعم**".

أشعر بألم في الضرس، ولكنّه هذه المرة جديد، مختلف، كأنه ألم ممتع، بل كأنه ألم لذيذ، أدرك أنّها آخر مرة أحس بها بالألم في هذا الضرس.

ويهمس لي الطبيب ثانية:

"**استرخِ قليلاً، ستشعر هنا في الخدّ بشيء من الخدر**".

ويتركني ويمضي.

لا أعرف؟ أزال الألم حقيقة لحظةَ دخولي غرفة العلاج؟ أم أنني استحيَيْت أن أعبِّر عن ألمي أمام شابٍّ في منتصف عمري؟ وإذاً كيف سأصرخ بعد قليل أمامه، وهو يشدُّ الضرس؟ يسحبه من جذوره؟ بل كيف سأصرخ أمام تلك الحسناء؟!

في احتفالات عامّة، يضع بعض شباب القبيلة جمرات متّقدة على سواعدهم، فتحرق جلودهم، وهم صامدون، لا يصرخون، ولا يأتون بحركة، لأنَّ عيون الصبايا من حسناوات القبيلة ترمقهم، وعليهم أن يثبتوا أمامهن علائم الرجولة.

لا أذكر أين قرأت ذلك.

وعليَّ الآن أن أثبت في امتحان الكهولة، أمام الطبيب الشاب، والمريضة الحسناء.

بل، أمام الممرِّضة الشابّة أيضاً، وهاهي ذي تدعك خدّي وتسأل:

"**هل تحسُّ بالخدر؟**".

وأشير برأسي بالإيجاب.

فمها القرنفلي ناعم، صوتها حنون، لمسة أناملها رقيقة، هي أيضاً حسناء، كأنّها من الحور العين.

الطبيب يطلب مني فتح فمي، الممرضة الحسناء تمسك برأسي، وهي واقفة ورائي، أحس لدونة أناملها الناعمة.

الضوء الأبيض يسطع أمامي، أغمض عينيّ، أحس كأنّي أرى على شاشة بيضاء الضرسَ وهو يسحب من جذوره.

الممرّضة تضع لفافة قطن صغيرة في موضع الضرس.

الطبيب يعرض عليّ ضرساً محمولاً بملقط، ويقول:

"**هذا هو الضرس**".

"**ضرسي أنا؟؟**".

"**نعم**".

"**هل خلعته؟!**".

"**انتهى كل شيء**".

لا أكاد أصدّق، ارفع راسي ثانية، أقول للطبيب:

"**عند ضرس آخر فيه نخر، أرجو خلع أيضاً**".

يردُّ وهو يبتسم:

"**لا يجوز خلع ضرسين في جلسة واحدة**".

أشكره، أشدُّ على يده، فيرد:

"**بل أنا أشكرك، لأنك لم تتعبني**".

وأمضي نحو الباب، أمرُّ بالحسناء، وهي ما تزال في كرسي العلاج، ملقية برأسها إلى وراء، وثغرها مفتوح.

عند الباب أجد صديقي ينتظرني.

ونحن في السيارة يقول لي:

"**سأوصلك إلى البيت، يجب أن ترتاح في السرير**".

وأرد:

"**لا، بل سنمضي إلى مقهى النجمة، لنشرب القهوة، ونلعب دورين في الشطرنج**".

***

اليوم، وقد مرّ عامٌ أو أكثر على خلع ذلك الضرس، أنا مضطر إلى خلع ضرس آخر.

أجدني أتهيّب الذهاب إلى الطبيب، تحتشد أمامي كل المخاوف، الإقناع العقلي غير المعاناة، ولا بد أن تكون جديدة تجربة خلع الضرس الثاني.

***

الفرصة الأخيرة

"**تفضّل** ".

يردُّ على قرع الباب، وهو مكبٌّ على الأوراق بين يديه، وحين يسمع صوت الآذن وهو يحيِّيه، يرفع رأسه، ويرمقه من وراء نظّارته.

ويقترب الآذن منه وهو يفتح ملف البريد، يناوله ظرفاً مغلقاً كُتب عليه بخطٍّ يعرفه حقَّ المعرفة: "سرّي جدّاً".

ينظر إلى الآذن مستفهماً، فيرد عليه:

"**كما تعلم، المدير دقيق في أموره كلِّها، لا شك أنه أعدّ هذا الكتاب قبل سفره، وتركه عند السكرتيرة**".

"**ولكن، لماذا لم يسلّمني الكتاب؟**".

ويشير الآذن بعينيه معرباً عن عدم قدرته على تفسير الموقف.

يقلب الظرف المغلق، وهو يتردّد في فتحه، منتظراً خروج الآذن، ثم ينظر إلى ساعة يده.

الساعة الواحدة تماماً، هي تعليمات المدير من غير شك للسكرتيرة قبل سفره، يريد إشعار الجمع بأنه حاضر، ولو كانغائباً، ولكنَّ الأمر لا يعنيه في شيء، فهو منضبط دائماً، سواء في غياب المدير أو في حضوره.

ويفتح الظرف، ويقرأ:

"**السيد رئيس الموظّفين..**

أنت مفوّض – في حالة تأخُّري – بإدارة الاجتماع السنوي العامّ للموظّفين، المحدّد في موعده الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين ٥/١١

تفويضي لك بإدارة الاجتماع يحمِّلك مسؤولية المديرية كلِّها، فاحفظ مصالحها.

المدير".

يضع عن عينيه نظّارته، يضغط بإصبعه على زاويتي عينيه، ثم يمسح العرق تحت جفنيه.

تكليفٌ مزعج من غير شكّ، يوقع الشقاق بينه وبين سائر الموظّفين، ويدخل الحسد والكراهية إلى نفوسهم. طوال خمسة أعوام من عمله رئيساً للموظّفين لم يرأس اجتماعاً مثل هذا، بل منذ دخوله سلك الوظيفة قبل عشرين عاماً، وقد بلغ الآن الخمسين، لم يفكِّر في إدارة ولا رئاسة، ولا حلم قطُّ بشيءٍ من ذلك، أما وظيفة رئيس الموظّفين فقد رُشِّح لها بعد أن أصبحت شاغرةً بوفاة رئيس الموظّفين السابق، ولم يكن ترشيحه لها إلا بسب قدمه، وقد ظلَّ فيها مثلما كان من قبل، لطيف المعشر، محبوباً لدى سائر الموظّفين.

ويطوي الكتاب، يعيده إلى الظرف، يضعه في جيبه، ويلتفت إلى النافذة، ينظر إلى المدينة تسدُّ الأفق.

أمر مقلقٌ حقّاً، ومزعج.

ولكنَّه في الحقيقة مجرّد اجتماع تقليدي، يدعو إليه المدير العامّ الموظَّفين كلَّ سنة مرة، فيُعِدُّ الموظّفون قائمةً بطلباتهم، يرفعونها إليه،

وكلٌّ منهم يتوقع الفرج من وراء الاجتماع، أحياناً يقرأ عليهم المدير جزءاً من الخطّة العامّة للمديرية، ويعدهم بمناقشتها.

يلتقي الجميع – كلَّ مرة – عند تمام الساعة الحادية عشرة في مكتب المدير، وهو غير حاضر، الآذن يمسح طاولة المدير، يزيد من التماعة الزجاج، وتمرُّ ربع ساعة، والمدير غائب، ثم تدخل السكرتيرة، فتضع سلفاً ملفّاً على طاولة المدير أمام موضع جلوسه، فيعلم الجميع أن وصول المدير أصبح وشيكاً.

وبعد عشر دقائق أخرى من الانتظار يصل المدير، يحمل حقيبة، يضعها على الطاولة بهدوء، ينظر إلى ساعة يده، يدرك أنه تأخر أكثر من نصف ساعة، ولكنه لا يشير إلى شيء من ذلك لا باعتذار ولا سواه، ثم ينادي الآذن ليقول له بين المداعبة والعتاب:

"**أين القهوة؟ لماذا لم تقدِّم للإخوة واجب الضيافة؟!**".

ثم يبدي تذمُّره من ضغط العمل، وإحساسه بالإرهاق نم تراكم المسؤوليّات، ويعبِّر عن ضيقه ذرعاً بتأخُّر المعاملات، وبقدر محسوبٍ من التقريع وقدرٍ آخر من التشجيع، يدعو الموظّفين إلى السرعة والدقّة في العمل.

وقبل أن ينتهي أكثر الموظّفين من شرب القهوة يرن جرس الهاتف، وكأنه على موعد معه، وإذا اتصالٌ هامّ، ويعلن المدير نهاية الاجتماع، ويخرج الجميع، الملل يأكلهم، والخيبة تعشش في نفوسهم.

كيف سيدير هو الاجتماع هذه المرّة؟!

ويتقاطر الموظّفون على مكتبه عند نهاية الدوام، يوقّعون في السجلّ اليومي، وينصرفون كلٌّ منهم على عجلةٍ من أمره، عيون كليلة، ووجوه شاحبة، ولا أحد ينبس بكلمة.

غداً، عند الساعة الحادية عشرة، سيراهم في صورة مختلفة، يودُّ لو يخبرهم بأنه غداً سيرأس الاجتماع، يودّ لو يخبر الآذن فقط.

الآذن من غير شكٍّ أذاع في الموظّفين نبأ الظرف المغلق، وقد كتب عليه: "سرّيّ جدّاً"، والسكرتيرة من غير شكٍّ أذاعت ذلك، ولكن لا أحد يعرف محتواه.

المدير آثر كتابة الخطاب بيده، حتى لا يعلم به أحد، لا المنشئ في الديوان، ولا ضارب الآلة الكاتبة، ولا السكرتيرة نفسها، وإذاً، عليه أن يكتم الأمر، يجب أن يبقيه سرّاً، مثلما شاء له المدير ذلك.

يوقّع في السجلّ اليومي بعد توقيع آخر موظّف، ويخرج.

في البهو يلتقيه زميله حسين، فيسأله:

"**هل أنت ذاهب إلى السوق يا أبو أحمد؟**".

"**لا، سأذهب إلى البيت مباشرة**".

يسير بجانبه، يخرجان من باب المديرية معاً، فجأة يسأله حسين:

"**هل تشكو من شيء؟**".

"**لا، الحمد لله، أنا بخير**".

ويرمه بنظرة، ثم يعلّق:

"**ولكن، تبدو غير طبيعي**".

ويرد:

"**لا، أبداً، فقط أحبُّ الوصول إلى البيت سريعاً، لا شيء، أبداً**".

وهو في الحافلة في الطريق من المديرية إلى البيت يمدّ يده إلى جيبه، يخرج خطاب المدير، يعيد النظر فيه.

الحبر الأسود، الخط العريض، الكلمات المتناثرة، التوقيع الملتفُّ الملتوي، صور يعرفها من قبل، ولكنّها هذه المرة تبدو جديدة.

على مائدة الغداء يلتئم شمل الأسرة، أولاده الخمسة، وزوجه، يتناول بضع لقيمات على عجل. ثم ينهض، فتسأله زوجته:

"**والشاي؟**".

"**سأشربه في غرفتي**".

وتدخل عليه زوجته بالشاي، وهي تسأل:

"**ماذا حصل؟ أنت قلق؟!**".

"**لا شيء**".

"**ولكنّك لم تحدّث الأولاد، ولم تسألهم عن دراستهم، حتى الشاي**".

يقاطعها ضجراً:

"**لا شيء، قلت لك لا شيء**".

"**ولكنّها ليست عادتك**".

يأخذ رشفة من الشاي ، ويتكلّم بهدوء

"**غداً الاجتماع السنوي للموظّفين**".

"**وهل يهمّك الاجتماع كثيراً ؟!**".

"**سأدير الاجتماع بدلاً من المدير**".

وتلعّق بفرح :

"**خبر سارّ، لا ينبغي كتمه عن الأولاد**".

ويرد بهدوء :

"**لا تتوهّمي، هو مجرّد أمر عارض، لا قيمة له، لا شيء سوى الانزعاج**".

وتمضي الزوجة إلى المطبخ.

يقعد في السرير، إلى جواره كأس الشاي والمذياع الصغير، يتابع فيه الأخبار والتعليقات.

كل الأخبار تدور حول الاجتماعات، اجتماعٌ في الشمال، اجتماعٌ في الجنوب، اجتماع رئيس برئيس، اجتماع وزير بوزير، اجتماعات في الداخل، اجتماعات في الخارج، اجتماعات من أجل السلم، اجتماعات من أجل الحرب.

اجتماعات اجتماعات، ولا شيء سوى الاجتماعات، ترى، ما هي أشكال الاجتماعات هناك؟ وكيف تتم؟ ومن يديرها؟

سيكتب الكلمة التي يفتتح بها الاجتماع، لن يتركها مرتجلة، سيوضِّح في كلِّ كلمة خطّة المديرية للعام الجديد، سيوضِّحها كلَّها نقطة نقطةً بالتفصيل.

وهو يدير الاجتماع يعلن أنَّ مناقشة الخطّة أمر مشروع، بل من حقِّ كلِّ موظَّف، ويعطي كلَّ موظَّفٍ حقَّ الكلام، يمنحه عشر دقائق، بل خمس عشرة دقيقة، يطلب من الجميع عرض طلباتهم، يعدهم بتحقيق الطلبات كلِّها، أيّاً كانت، وبعد مناقشات ومداولات يعلن تعديل الخطّة وفق اقتراحاتهم، بل يترك لهم إعادة صياغة الخطّة، ويهمُّ بالنهوض، ولكن فجأة تخطر له فكرة، ويعلن قائلاً:

"**ما رأيكم في انتخاب مدير جديد بدلاً من المدير الغائب؟**".

ويفتح الباب، يا للخيبة، هل جاء المدير الغائب؟! ويلتفت، وإذا زوجته تدخل عليه سائلةً:

"**الشاي برد، لِماذا لم تشربه حتى الآن؟!**".

بعد نحو ساعتين من قيلولة ثقيلة، ينهض، وهو يحسُّ بصداع شديد.

وفي الشرفة المطلّة على الشارع يحتسي القهوة مع زوجته.

لا الشرفة ولا الشارع ولا السيارات ولا زوجته ولا القهوة، كلُّ أولئك لا ينفع في إبعاد صورة الاجتماع عن مخيّلته.

أحلام كثيرة تزاحمت عليه في القيلولة، ولا يكاد يذكر منها شيئاً.

حقائب وأقلام وأصدقاء جدد وقدامى يتخاصم معهم، ومطارات وعمارات قديمة جديدة يعرف بعضها وبعضها الآخر لا يعرفه، وجرائد تملأ الرفوف، تداخل كلُّ ذلك بعضه في بعض واختلط.

ويقترح على زوجته زيارة شقيقها، فلعل الزيارة تشغله قليلاً عن التفكير في الاجتماع وإدارته.

وفي الطريق تسأله زوجته عن صمته.

فيجيب:

"**لا شيء**".

"**لا تفكّر، ولا تتعب نفسك، اترك الأمور تسير كما كانت تسير عليه من قبل**".

"**ولكن، هذه فرصتي الأولى، وهي بلا شكٍّ الأخيرة، وعندي بعض الاقتراحات من أجل التغيير**".

وتعلّق بعفوية:

"**لا تقدر لا أنت ولا غيرك على تغيير أي شيء، منذ آدم وإلى اليوم هكذا هي الدنيا**".

يصمت، يرسل زفرة طويلة، ثم يردّ ساخراً:

"**قولي منذ حوّاء، فهي السبب في بلاء الدنيا**".

وتضيف بالسخرية نفسها:

"**هي أو هو، سواء بسواء، ألم تخلق هي من ضلعه؟! على كل حال، هكذا هي الدنيا**".

***

ويعلب مع شقيق زوجته ثلاثة أدوار في الشطرنج، وهو يحتسي القهوة، وقد كسب الدور الأول، وخسر الدورين الثاني والثالث.

***

ويستأذن في إنهاء الزيارة، فيلحّ عليه شقيق زوجته ليلعب دوراً رابعاً، فيعتذر متعلِّلاً:

"**عند غداً اجتماع عامٌّ مع كلِّ الموظّفين**".

ويرد شقيق زوجته، معلِّقاً وسائلاً بعفوية:

"**ليكن ألف اجتماع، هل سترأس أنت الاجتماع؟**".

ويجيب:

"**نعم**".

"**والمدير؟!**".

"**سافر عند نهاية الدوام من يوم السبت إلى العاصمة لحضور الاجتماع العامّ للمديرين**".

ويردُّ شقيق زوجته:

"**اقعد العب دوراً رابعاً، قد يرجع الليلة أو صباح غد، أنا أعرف هذه الاجتماعات**".

ويصمت هنيهة ثم يضيف:

"**على كل حال ليست مشكلة، تعرف أنت بنفسك الاجتماعات حرق المعرفة، لا تفكّر، تصرّف مثلما كان المدير يتصرّف، لا تتعب نفسك**".

ويلعب دوراً رابعاً فيخسر.

***

يرجع إلى البيت خائباً.

وقبل أن يستسلم إلى النوم يتّخذ قراره:

"**سأتصرّف وفق ما أراه أنا، لا وفق ما كان المدير يتصرّف**".

ويستيقظ في الصباح مثقل الرأس، مشدود البدن. يحلق ذقنه بهدوء، وهو يحرص الحرص كلَّه على ألا يصيب ذقنه بجرح.

وأمام مجموعة قمصانه القديمة يقف متردِّداً، يشاور زوجته، كما يشاورها في ربطة العنق والمعطف.

وهي تعدُّ قهوة الصباح، ينظر في ساعة يده، وإذا هي الثامنة، فيقرّر ألا يشرب شيئاً.

كيف حدث هذا؟ وهو الذي لم يتأخّر قط؟!

وراء الباب يسألها:

"**ما رأيك؟**".

"**في أي شيء؟!**".

ويرد بغضب:

"**في الاجتماع؟!**".

وتجيب بهدوء:

"**الرأي لك**".

"**ورأيك؟!**".

"**ليكن مثل كلِّ الاجتماعات السابقة**".

ينظر إليها بغضب، يسرع إلى الداخل، يخرج من جيب معطفه القديم خطاب المدير، يدسُّه في جيب المعطف الذي يرتديه، يصفق الباب وراءه، ويمضي هابطاً على الدرج.

في سيارة الأجرة يخرج من جيبه خطاب المدير، يعيد النظر فيه:

"".

إذاً، لا بد من التقيُّد بالتفويض وحفظ المصالح العامّة، من الأفضل بلا شكٍّ التصرُّف وفق ما كان المدير يتصرّف، بل بشكل أكثر قوة وحزماً، فالوكيل مسؤول أكثر من الأصيل.

يدخل المديرية، ينظر في ساعة يده، الثامنة والنصف وخمس دقائق، وقبل أن يستقرّ وراء طاولته، يدخل عليه الآذن، يحيّيه، ثم يقول له كالهامس:

"**المدير يدعوك إلى مكتبه**".

ينظر إليه مدهوشاً، فيضيف:

"**رجع أمس ليلاً، وفي السابعة والنصف من هذا الصباح كان وراء مكتبه، وأوّل ما سألني عنه هو أنت**".

من سيقرأ تلك الرواية..؟

لا يعرف كيف أشرقت الفكرة في رأسه بغتة؟ ولكن، ما السبيل إلى تنفيذها؟

***

وهو خارج من المديرية عند نهاية الدوام، التمعت الفكرة في ذهنه، مثل برق يومض فجأة في سماء صافية، وبدلاً من أن يمضي إلى مركز انطلاق الحافلات، انعطف نحو اتِّجاه آخر، وأخذ يحثُّ خطاه.

لا بأس، فليتأخّر قليلاً عن المنزل، يعرف أن عليه الانتظار أكثر من ساعة ليتمكّن من الصعود إلى حافلة تحمله إلى البيت.

هكذا انبثقت الفكرة من ذهنه، وهو خارج من المديرية، فأحسّ بالانتشاء، شعر بروحه تفيض، تغمر العالم.

ما عاد يسمع ضجيج الشارع، ولا صخب السيارات، انزاحت عن كاهله أعباء النهار كلِّه، نسي خصامه مع المراجع الفظّ، نسي استياءه من المراجع الغليظ، ومضى مثل فراشة، يخترق زحام الرصيف، يمرُّ بالناس، يعبر الشارع، لا يبالي بإشارات المرور.

بدأت الصورة تتحقّق في ذهنه، أخذ يرى الرياض والسهول والجبال، ليس أمامه، وهو يمضي إلى دار الكتب الوطنية، سوى بول وفرجيني، وهما يتراكضان في السهول، يختبئان وراء الصخور، بول ينادي، ويردّد يالوادي صدى النداء: فرجيني، فرجيني.

يجب أن أقرأ.

هكذا انشقّ دماغه عن الفكرة، مثل باب يُفتح على مصراعيه. يجب أن أقرأ، سأرجع إلى المطالعة، كتاب "الفضيلة: أو... بول وفرجيني"، هو أول كتاب قرأته وأنا طالب في السنة الأولى من المرحلة الإعدادية، لا أزال أذكر، اشتريه من مصروفي الشخصي، ولكن لا أذكر بعد ذلك من استعاره منّي، ولم يردَّه إليّ.

شغلتني الوظيفة، شغلني البيت، شغلني الأولاد، منذ أكثر من عشر سنوات ما اشتريت أيّ مجلّة أو كتاب.

ويدخل دار الكتب الوطنية، يصعد الدرج.

هاهنا كنت آتي كل يوم، أمضي ساعات وساعات، أقرأ وأقرأ، أين منّي الآن تلك الأيّام، بل أين أنا منها؟! لا أخرج من البيت إلا لشراء دواء أو طعام، وسرعان ما أرجع إلى البيت.

طاحون يدور، وأنا بين الرحى والرحى، والعجيب أنّي لا أنا بمطحون، ولا أنا بقادر على إزاحة الرحى عن ظهري، لو وضعت تحت الرحى سلحفاة لتحطّمت وتفتّتت وسُحقت، أما أنا...

ويدخل جناح الإعارة، يطالعه موظّف شابّ، يطلب منه كتاب "الفضيلة"، من ترجمة المنفلوطي، الموظّف يردُّ عليه بهدوء طالباً منه الكشف عن رقم الكتاب في الفهرس، وملء الطلب الخاص بالإعارة.

يتنبّه إلى تسرُّعه، يعتذر، وعلى الفور يمضي إلى الفهرس، ويرجع إلى الموظّف وقد ملأ الطلب.

حروف الرواية بدأت تتخايل أمام عينيه، يكاد يسترجع جمل المنفلوطي وكلماته، وهو يسهب ويكرِّر ويرادف. يشعر بالارتياح، يحسُّ كأنّما يستلقي على قفاه فوق موجٍ هادئ على سطح بحيرة

ساكنة، يغمض عينيه، والموج ينساب هادئاً هادئاً، ما أحلى ذلك التكرار في أسلوب المنفلوطي، وما أجمل تلك الألفاظ المرصوفة.

ما أسرع الأيام؟! ثلاثون عاماً مرّت، قرأت الكتاب وأنت في الثانية عشرة، والآن تقرؤه وأنت في الثانية والأربعين، ما أقرب اليوم من الأم؟ بل ما أشبه البارحة باليوم؟!

"**أين بطاقة الاستعارة الخارجية؟!**".

هكذا يسأله الموظّف الشابّ.

يدهش، يتردد، يشعر بالمفاجأة، يحاول كبح انفعاله، لا يريد لشعور البهجة أن يتزحزح، لا يريد لسيل الإشراق أن ينقطع.

"**طول عمر أستعير الكتب من دار الكتب الوطنية من غير بطاقة الاستعارة الخارجيّة**".

هكذا يرد، فيسأله الموظَّف الشابّ:

"**منذ كم سنة لم تدخل هذه الدار؟**".

كمن تقف به فجأة سيارة مندفعة، هكذا أحس، اصطدم وجهه بالحاجز، زلزلت نفسه، الإشراق يكاد يعتم، الباب المفتوح على مصراعيه يوشك أن يغلق. ولكن لا، لن يستسلم.

يحاور الموظّف الشابّ، يحاول أن يقنعه. يوضّح له أنّ الأربعين التي ينحدر في أدراجها هابطة تشفع له، ولكن الموظّف الشابّ يؤكّد أن ليس بإمكانه استعارة أي كتاب، من غير بطاقة إعارة خاصّة، يزوّده بها مدير الدار.

تتهدّل كتفاه، يحسُّ بإعياء شديد، كأنّ ثقلاً كبيراً حطّ على كاهله، ويهمُّ بالمضي، ولكنّه يلتفت إلى الموظّف الشابّ، يسأله:

"**هل بإمكاني مراجعة السيّد المدير؟**".

ويرد الموظّف:

"**تفضّل**".

لأجل القرار الذي اتّخذه، لأجل الحلم الجميل، لأجل الخطوات التي مشاها من المديرية إلى دار الكتب الوطنية، لن يرجع خائباً. سيدخل على المدير، هو لا يحب اللجاج والجدل والإلحاح، يكره أني مراجع يحاول أن يحاجّه، ولكنّه سيدخل على المدير، وسيكون هو نفسه هذه المرة ذلك المراجع الملحاح.

يحدّث المدير عنه رغبته في استعارة رواية الفضيلة، فيسأله المدير:

"**ومن سيقرأ تلك الرواية؟ أنت أم ابنك أم ابنتك؟**".

يذهل للسؤال، ما كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل، ويجد نفسه وقد ارتمى في مقعد مقابل مكتب المدير، ويمضي، فيشرح بإسهاب قراره بالعودة إلى المطالعة، يحدّثه عن حلمه بقراءة رواية الفضيلة والعيش مع بول وفرجيني في تلك السهوب الممرعة.

ويقاطعه المدير، ليقدّم إليه توضيحاً يشبه الاعتذار:

"**الحقيقة، كثير من طلاب المدارس في هذه الأيام يستعيرون تلك الرواية، لا سيما طلاب الحلقة الإعدادية، يبدو أن مدرّسيهم يوجّهونهم إليها للاستفادة من أسلوب المترجم**".

ويصمت هنيهة، ثم يضيف بلهجة أخرى مختلفة:

"**وإن كنت أنا شخصياً لا أتفق مع أولئك المدرّسين، لأنّ أسلوب الرواية في الواقع متكلَّف**".

يحسُّ بالدم يغلي في عروقه، فيأبى إلا أن يتكلّم:

"**ولكنّـي، أنـا شخصـياً، معجـب بـذلك الأسـلوب، ومتشـوّق جـدّاً لإعادة قراءة الرواية، ولذلك أود استعارتها**".

ويرد المدير:

"**لك الحق في ذلك**".

ويخرج من دار الكتب الوطنية مزهوّاً، كتاب "الفضيلة "في يمناه، وهو يهبط على الدرج تصفّحه، الطبعة نفسها التي قرأها قبل ثلاثين سنة، الورق نفسه، الحروف نفسها، ولكنَّ الورق مصفرّ، في الزوايا بصمات القرّاء، وآثار أنامل المستعيرين، رائحة الرطوبة المتسللة من الكتب تبعث في نفسه الإحساس ببهجة الماضي، أي شعور جميل يعيش؟!

حين يشعر بالملل، كان ينزل إلى دار الكتب الوطنية، يقرأ فيها، أو يستعير منها كتاباً، يرجع به إلى البيت، وهو متشوّق إلى قراءته، إلى الدخول في عالمه، شعوره الأجمل كان حين يشتري كتاباً جديداً، يفتح جوانبه بطرف بطاقة هويّته الشخصية، أبهى من افتتاح المدن والحصون، أبهى من دخول الغابات البكر والقلاع، ذلك ما كان يشعر به.

الآن يعاوده ذلك الشعور.

لن يخرج من البيت، لن يمضي مع زوجته للسهر عند أخيه، لن ينزل إلى السوق ليشتري قميصاً لابنه أو حذاء لابنته، كفاه ضياعاً، كل شيء للبيت، كل شيء للأولاد، كل شيء للوظيفة، كل عمره

لحاجات تافهة لا تنقضي ولا تنتهي، كالدوّامة، تلف به تدور، تجرّه إلى أسفل، ثم تطفو به ثانية إلى أعلى، وهكذا دواليك.

ويمضي إلى مركز انطلاق الحافلات، الحظُّ يحالفه، من غير انتظار يجد نفسه محشوراً بين الركّاب في حافلة تتّجه به إلى البيت.

يتمنى لو يفتح الكتاب لينظر فيه، ولن أنّى له ذلك؟ وهو محشور بين أجساد تدفعه من أمام وأجساد تدفعه من وراء؟ لو كان جالساً في أحد المقاعد لكان بإمكانه قراءة صفحتين أو ثلاث صفحات.

ويصل إلى البيت، وكأنّه يرى قوس قزح يظلّله، وهو يمرُّ من تحته مزهوّاً، وألوانه تملأ نفسه بهجة.

***

بعد أربعة أيام يخرج من بيته إلى المديرية، وهو يحمل رواية "الفضيلة "بيده، وستائر قاتمة مسدلة على روحه.

أنا لا أعرف، لا يمكنني أن أقرأ، أربعة أيّام مرّت لم أفتح فيها الكتاب، استعرت الرواية يوم الاثنين، وهاهو ذا يوم السبت، هذا هو اليوم الخامس، بعد غد، الاثنين، يجب أن أردّ الرواية، لم يبق سوى يومين لإعادتها.

حتى يوم أمس، الجمعة، لم أقرأ فيها حرفاً، طوال يوم الجمعة نم السابعة صباحاً إلى الواحدة بعد منتصف الليل لم أفتح الرواية، لا بد من تأمين الطعام، لا بد من شراء الخبز واللحم والفاكهة والخضر، منى حرارتها ارتفعت، أحملها إلى الطبيب، حامد يعاند أمّه، يريد النزول إلى الشارع ليلعب مع الأولاد، يجب أن أقنعه بضرورة المذاكرة ومراجعة الدروس، يحتجُّ بأنه في يوم إجازة، وأنّه أتمّ واجباته، وال

تساعد أمّها في المطبخ، ثم تنصرف إلى دروسها، ولكن لا بد من الخروج بهم بعد العصر في نزهة قصيرة إلى الحديقة المجاورة، زوجتي لم تطلب ذلك، ولكن أحسُّ أن تلك هي رغبتها.

لا أعرف كيف تسرّب النهار، بل كيف تسرّب العمر، كأنّه الماء يتسرّب من بين الأصابع، بل كأنّه البنزين، لا يتسرّب فقط، بل يتبخّر، يطير، يشتعل.

إذا كنت طوال أربعة أيام لم أقرأ في البيت حرفاً، فهل يمكنني في المكتب، بين المعاملات والمراجعين، قراءة شيء خلال اليومين الباقيين لمدة الإعارة؟

***

يستيقظ، وطعم الاستياء في فمه.

اليوم سأردّ الرواية إلى دار الكتب، لست أدري كيف نسيتها يوم أمس، استعارتها شؤم، من يوم استعارتي لها انقلبت حياتي.

أخذتها إلى المديرية، فإذا مراجع يقول لي:

"**أنا أعرف، معاملتي تهملها، أما الروايات والقصص فتقرؤها**".

ويشير إلى الرواية المرمية على مكتبي، ثم يمضي، وهو يهدد.

أحاول القراءة فيها، في الدقائق الأخيرة من الدوام، فإذا حسام يسألني:

"**ماذا تقرأ؟**".

أتردد، أغلق الرواية، ألقي بها على المكتب، وأرد:

"**آه، رواية الفضيلة، لم أبدأ بها بعد**".

ويعلّق:

"هذه رواية من نمط قديم، أصبحت مجرّد ذكرى، لو عرفت أنك ترغب حقيقة في القراءة لأحضرت لك روايات ماركيز".

ويمضي يتكلم، يثرثر، لا أعرف ماذا يقول، وأنا صامت، أنا أصم، أنا أبكم.

الآن عرفت، حسام هو الذي أثار فيّ الشوق إلى القراءة، قبل شهر حدّثني عن رواية لكاتب ياباني لا أذكر اسمه، حسام شاب، لم يمضِ على تخرُّجه في الجامعة سوى عام واحد، لا يزال عزباً، لا يزال متحمساً للوظيفة والعمل والحياة.

في صباح اليم التالي يتّصل بي المدير، وبعد التحيّة المقتضبة يتكلّم:

"أنت في الواقع من خيرة الموظّفين، وأنا أعرف أنّك تنجز المعاملات ولا تؤخِّرها، بل أعرف أنّك لا تقرأ في المكتب لا الصحف ولا المجلات، ولا تدخّن ولا تشرب القهوة".

وأصمت، أتلقى كلامه، أدرك أن ذلك المراجع قد شكاني إليه.

ويتابع كلامه:

"لذلك، أنا لم أصدق شكوى أحد المراجعين، حين ادّعى أنّك كنت تقرأ في رواية شاهدها على مكتبك".

وأرد:

"نعم، هي على مكتبي، هذا هو الواقع، ولكن في الحقيقة لم أكن أقرأ فيها".

"لا تقلق، اتصالي بك لمجرد الطمأنة، والاطمئنان".

هكذا ينهي المدير اتصاله، وأضع السمّاعة.

وددت لو قلت له إني طوال ستة أيام لم أقرأ فيها كلمة، لا في البيت ولا في المكتب، وددت لو قلت له: لو أنها بقيت عندي سنة كاملة لَما قرأت فيها شيئاً، أنا أعرف ذلك.

ولكن، على الرغم من ذلك كلِّه، لا أعرف ما سر ذلك الشوق الداخلي إلى قراءتها، لا، ليس حديث حسام عن قراءاته. ثمّة شيء آخر لا أعرف ما هو، دفعني إلى تجديد الاستعارة، وإذا أنا أمام ذلك الموظّف الشاب أقدّم إليه الرواية، وأقول له:

"**أرجو تجديد الإعارة لأسبوع آخر**".

لا أزال أحس بالبهجة تشرق على روحي، لا، لن تغيب، هي كشمس منتصف الليل، لا أزال حس الضوء يسطع، يملأ الآفاق، كل الآفاق.

"**لن يكون المدير أكرم مني، أنا سوف أجدد لك الإعارة على مسؤوليتي، لن أطلب منك مراجعة المدير**".

هكذا يقول الموظّف الشاب، وهو يجدّد لي إعارة الرواية.

وأخرج من دار الكتب الوطنية، وكأنني ولدت من جديد.

ولكن، ها قد انقضى الأسبوع الثاني، ولم أقرأ كلمة واحدة.

لا أعرف كيف مرّ الأسبوع التالي، لا أصدّق، لو حكى لي أحد لَما صدّقته، لقت عنه كاذب، سبعة أيّام تمر، لا أجد فيها ساعة واحدة أخلو فيها إلى نفسي لأقرأ صفحة واحدة؟!

ماذا فعلت؟ ماذا أنجزت؟ ماذا حققت؟!

الوظيفة، البيت، السوق، الطعام، الأولاد، الثياب، المدرسة، الحافلة، الاستياء من العمل، الاستياء من المراجعين، الاستياء من المدير، الاستياء من زميلي حسام، بل الاستياء من الذات.

سبعة أيام، بل خمسة عشر يوماً، لم يولد أحد، لم يمرض أحد، لم يمت أحد، لا من اسرتي ولا من أقاربي ولا من جيراني، لم أُشغل بشيء، لم أُسجن، لم أمرض، لم أسافر، لم أمت، ومع ذلك، لم أقرأ كلمة.

ويأتيه صوت زوجته من المطبخ، وهي تنادي:

"**ما انتهيت من ارتداء ثيابك؟ القهوة جاهزة، الساعة تقترب من السابعة والنصف**".

ويخرج إليها سائلاً:

"**أين الرواية؟!**".

"**أي رواية؟**".

"**رواية الفضيلة، منذ ساعة وأنا أبحث عنها، أمس حملتها معي، يبدو أنّي نسيتها هنا على المائدة، اليوم يجب أن أردّها إلى دار الكتب، أين هي؟!**".

وتدل عليهما ابنتهما نوال، وهي تقدّم إليه الرواية، قائلةً:

"**معذرة أبي، وجدتها أمس هنا على المائدة، فأخذتها وقرأتها**".

يسأل مدهوشاً:

"**هل قرأتها؟**".

"**نعم**".

"**كلها؟!**".

"**أجل، كلّها**".

يصمت، يتردد، ثم يسألها:

"**وهل أعجبتك؟**".

"**ليس كثيراً، نهايتها حزينة، ولا أعرف لِماذا يكرّر المترجم الألفاظ، ويطيل الجمل، ويعيد المعنى الواحد في عدّة عبارات**".

يتناول منها الرواية، ويمضي، من غير أن يشرب قهوة الصباح.

***

وهو يهبط على الدرج يتذكّر سؤال مدير دار الكتب الوطنية:

"**من سيقرأ تلك الرواية؟!**".

***

المقابلة الجديدة

الناعورة الصناعية الزرقاء الصغيرة ما تفتأ تدور، تحرّكها فقاعات صغيرة، تدفعها مضخّة في أسفل الحوض الزجاجي.

هذا هو كل ما يراه متحرّكاً في الحوض، أما الأسماك الذهبية الحية الصغيرة فهي ساكنة لا يكاد يحس لها حركة، سوى غلاصمها، تنفتح وتنغلق في رتابة، وبين حين وآخر تلفت نظره الزعانف الرقيقة الشفّافة وهي تدفع الماء المحدود داخل الحوض، فيرف عينيه باستجابة آلية، ثم يرفع فنجان القهوة إلى فمه، يأخذ منها رشفة ثم يضعه، وهو لا يكاد يحسُّ لها طعماً.

وتدخل زوجته قادمة من المطبخ، فيقول لها:

"**أصبحت أكره هذا الحوض، بقدر ما كنت أحبه، وأتسلّى به**".

وتقعد قبالته أمام الحوض، تمدّ يدها إلى فنجانها المركون على طرف الطاولة الصغيرة، وقد كد يبرد، ترشف قهوتها من غير أن تعلّق بشيء.

ينظر إلى التجاعيد تحت عينيها، يفكّر في التجاعيد تحت عينيه، وهو الذي يكبرها بأكثر من عشر سنوات.

يفلت منه سؤال لا يعيه، ولا يتوقع أي جواب عنه:

"**لا أعرف ماذا أفعل بهذه الأسماك؟!**".

وتجيبه:

"**أعدها إلى البحر**".

ينظر إليها معاتباً، ثم يخيّم صمت ثقيل، لا يتخلّله سوى صوت هادئ لارتشاف القهوة، والناعورة الزرقاء في الحوض الزجاجي تدور.

وتقطع الصمت قائلة:

"**نمت كثيراً بعد الغداء يا أبو أحمد، كان يجب ألا تنام كل هذا الوقت، الشمس أوشكت على المغيب**".

يرشف آخر قطرة في فنجانه، ثم ينهض، ينقر بإصبعه على زجاج الحوض، تجفل الأسماء، تتحرّك هنيهة، ثم تهدأ، وهو يرقبها بصمت، ثم يتكلّم:

"**ما كنت أتوقّع أنني لن أجد أي مجال لاستثمار التعويض، وأنا الذي سعيت إلى الاستقالة بنفسي. ليتني ما استقلت**".

وتتكلم زوجته:

"**اقترحت عليك وضع التعويض عند زوج شقيقتي، فهو تاجر كبير**".

ويصيح بغضب:

"**ألف مرة قلت لك لا، لا، لا**".

وتعلّق بهدوء، وهي ماضية إلى المطبخ تحمل فنجاني القهوة:

"**أرجوك لا تغضب، تصرّف به كما تشاء**".

ويخرج إلى الشرفة.

شحوب آخر النهار يملأ السماء كآبة معتمة، والعمارات تلقي ظلالها الثقيلة على الشارع، والسيارات والبشر والأشجار والغبار، كلٌّ يتحرّك بفتور وكسل، كما في الحوض الزجاجي للأسماك الذهبية.

قبل تقديم الاستقالة ألف صاحب وصديق عرضوا عليَّ مشاريع لا أول لها ولا آخر، كلّهم شجّعوني: "بالتعويض يمكنك بدء حياة جديدة"، هكذا قالوا، وقدّمت الاستقالة، وبعد سنة ونصف السنة تمّت الموافقة، وبعد أربعة أشهر قبضت التعويض، واليوم كل واحد يقول لي: "المبلغ بسيط، لا يعادل أي شيء، هو مجرّد خطأ صغير، في حسابات تاجر عادي". ماذا أفعل؟

يمضي إلى المطبخ، يكسوه الندم، يفتعل الحاجة إلى شرب الماء، يقول لزوجته وهو يحتسي كأس الماء:

"**ليس أمامي سوى وضع المبلغ في المصرف والسحب منه شهراً وراء شهر، حتى ينفد**".

تردُّ بهدوء:

"**أمس، في غيابك، جاء جارنا صالح**".

يقاطعها:

"**عرض عليَّ من قبل مشاركته، ورفضت، ماذا يريد؟**".

"**يعرض عليك شراء أدوات منزلية ليبيعها في محلّه على حسابك، ويكتفي هو بنسبة عشرة بالمئة من الربح، والباقي لك**".

ويرد :

"**مراوغ، كذّاب، لا تصدّقيه**".

ويرن جرس الهاتف، فيمضي إليه بخطوات ثقيلة، يرفع السماعة، ويرد:

"**نعم**".

"**أبو أحمد؟**".

"**نعم**".

"**مساء الخير**".

"**أهلاً، مساء الخير**".

"**هل عرفتني**".

"**سامحني، الهرم والتقاعد والضجر أنساني كل شيء**".

الصوت الهادئ المتّزن يجامله ويطريه، يكيل له المديح والثناء، مؤكّداً له أنه ما زال في عز الرجولة، وأن المستقبل الزاهر ينتظره، ثم يعرّفه بنفسه، وإذا هو أول مدير تسلم ليده العمل في المديرية، قبل عشرين عاماً، ما تزال صورته محفورةً في ذهنه، شاربان أسودان عريضان، وشعر أسود كثيف، مرفوع إلى فوق، ونظّارة طبيّة في إطار أسود، تضخُّم العينين، وتمنح الحدق قوّة واتّساعاً، وصوت أجشٌّ غليظ أسود، حتى الصوت أسود، ولكن ما هذه الرقّة الآن؟ وما هذه الدماثة؟!

وتسأله زوجته، بعد أن يضع السمّاعة:

"**من هو؟**".

"**عبد الجليل، أوّل مدير أتسلّم العمل عنده في المديرية**".

"**وماذا يريد منك؟**".

"**لا أعرف**".

"**لِماذا اتّصل إذاً؟**".

"**يدعوني إلى زيارته في مكتبه**".

"**لِماذا؟**".

"**قلت لك لا أعرف**".

وتصمت هنيهة، ثم تعود إلى السؤال:

"**أما زال مديراً؟**".

"**نعم، ولكن لمكتب خاصٍّ للعلاقات التجارية**".

"**هذا شيء جيّد، متى ستزوره؟**".

"**كما سمعت الآن**".

وتعلّق:

"**كان من الأفضل لو أنّك وعدته بالزيارة بعد يومين أو ثلاثة، ليعرف أنّك مشغول**".

يتناول معطفه من المشجب، وهو يغمغم:

"**نعم، نعم، أنا مشغول، بل مشغول جدّاً جدّاً، عندي مشاريع وأعمال لا نهاية لها، ولا بداية أيضاً**".

يصفق الباب وراءه، ويمضي هابطاً على الدرج.

وفور وصوله إلى الشاعر يشير إلى سيّارة أجرة، ويطلب من السائق أن يوصله إلى مكتب "الأمانة "في شارع "الحمراء".

هل يستطيع عبد الجبّار أن يعيده إلى عمله الوظيفي؟ لا يعقل، عبد الجبار في الواقع يقدر على كلِّ شيء، ليته يفعل، لقد أصبح مرّةً مديراً عامّاً لمديريات المحافظة كلِّها، وهو مدير كفء. وإلا فلماذا يتّصل به؟ ما اتصل به طوال عمره، حتى حين كان موظّفاً عنده في المديرية ما اتصل به، لا في مكتبه ولا في منْزله، كيف عرف رقم هاتفه؟ كيف ذكره؟ لعله يريد أن يسأله عن المديريّة؟! أو لعلَّه على وشك تأسيس ناد للمتعاقدين، فكرة ممتازة، لعلها لم تخطر على بال عبد الجبّار نفسه، سيطرحها هو عليه، سيرحّب بها من غير شكّ، ناد

فخم يرتاده مساءً كلُّ المتقاعدين، هذا مدير عامّ، وذاك وكيل، وثالث أمين للسر، ورابع مراسل، وخامس مستخدم، وهكذا، كلهم يجتمعون على صعيد واحد، من غير مراتب ولا رتب، لا تعرف فيهم الرئيس من المرؤوس، لا ترى سوى التجاعيد العميقة، والبطون المنفوخة، والأكتاف المتهدّلة، والظهور المحنيّة، والوجنات الغائرة، والرؤوس الصلعاء اللامعة، ولكن لا بد للنادي من مدير وأمين للسر وكاتب ومراسل ومستخدم، الذي كان مديراً من قبلُ سيصبح مديراً من بعدُ، وكذلك المستخدم، سيظلُّ مستخدماً في النادي، ربّما...

"**هذا هو مكتب الأمانة**".

السيارة تقف إلى جانب الرصيف، والسائق ينظر إليه في المرآة.

يهبط من السيارة، تحتويه عتمة المساء، يحسُّ بها حلوة محبَّبة، أضواء الشوارع ومصابيح الإعلانات وضجيج السيارات إيقاعات صاخبة تعيد إليه الإحساس بالحياة.

يرفع رأسه إلى اللوحة التي تحمل اسم "مكتب الأمانة"، يشعر بالاطمئنان، لأنّ المكتب في الدور الأول من بناء شاهق، ويمضي فيصعد الدرج.

عبد الجليل هو نفسه، وراء مكتبه، يدخل عليه، فيراه مثلما رآه أول مرة دخل عليه فيها يوم تسلّم عمله في المديرية قبل عشرين عاماً، في هيبته وقوّته وعظمته وشكله المديريّ الصحيح.

يضع سمّاعة الهاتف من يده، ثم يمدّها له مصافحاً، فيشعر بالسرور والارتياح ليده القويّة وهو يرحّب به، والسيكار الفاخر يرفعه من زاوية فمه ليضعه في المنفضة بحركة هادئة واثقة.

ويلتفت حوله، فيرى جماعة من المراجعين أو الموظفين أو المسؤولين، لا يعرف حقيقتهم، يذهل لمرآهم، كأنّه لم يرهم ساعة دخوله، يحيِّيهم، يصافحهم واحداً واحداً، ثم يأخذ موضعه في مقعد مريح، يغوص فيه، فيشعر كأنّه قد أصبح موظّفاً من جديد ومديره أمامه.

المكتب الفاخر يجذبه، والمصباح العاكس يدهشه بأناقته، الستائر الخضراء المسدلة وراء مديره السابق والحالي تمتلك مشاعره، وهو يحس بروعة المكتب الفخم المطلّ من الشرفة الأولى على أعظم شارع تجاري حديث في المدينة انتقلت إليه معظم المحلات والمكاتب التجارية في المدينة.

إيجار المكتب لن يقل في الشهر عن الآلاف من غير شك، فأي مكتب هذا؟ وأي علاقات وأي أعمال يدير؟ وأي إدارة يتولاها عبد الجبّار؟!

لا شيء فيه قد تغيّر، سوى أمور صغيرة زادته عظمة وقوّة، الشعر الأسود المرفوع إلى فوق ظلَّ مرفوعاً إلى فوق كما هو من قبل، وكأنّما لم تسقط منه شعرة واحدة، ولكنّه أصبح أبيض، والنظّارة الطبيّة ذات الإطار الأسود هي نفسها، تشع ناقلةً صورةً مضخمةً للعينين، ولكن إطارها قد أصبح أبيض فضيّاً زادها ألقاً، أمّا الشاربان الأسودان فقد طارا، والوجه لم يفقد شيئاً من قوّته، ازداد صحّة واستدارةً وبهاء.

ترحيب حار، ولكنّه عملي، يمتاز بالإيجاز والتكثيف، تداخلت مع إجابة تجارية على الهاتف، ورافقته نفثات من دخان السيكار المعطّر.

بعد الترحيب يقول له:

"**أنت في القلب دائماً يا أبا أحمد، خدماتك لن ننساها، أنا أعرف أنّك قدّمت استقالتك، خطوة طيّبة، ولا شك في أنك لن تقعد في البيت، ولن تجمّد تعويضك، أولادك خمسة، وبيتك في الحيِّ الشرقي صغير ولا بدّ من تبديله، وأمامك التزامات كثيرة، ولا يمكن الاطمئنان إلى التجّار المرابين...**".

لعله ينصب له كميناً، أو يريد إيقاعه في مقلب؟! يذكر جيّداً يوم أصدر عقوبة خصم خمسة بالمئة من راتبه لمدة ثلاثة أشهر، لا لشيء، إلا لأنه رفض الدوام الإضافي، وهو نفسه الذي أخّر ترفيعه سنة كاملة، كما يذكر عدم موافقته على منحه إجازة أسبوع واحد يوم أجرى عملية لابنه أحمد.

وينفحه عبق قهوة فاخرة، وإذا مستخدم شابٌّ يدخل المكتب حاملاً فنجان قهوة في صينيّة فضيّة، يتقدّم منه، وفق إشارة من يد عبد الجبّار، والسيكارة بين إصبعيه.

يستسلم لعبق القهوة، يمدُّ يده إلى الفنجان، بذهول، يثور في نفسه الحنين إلى فناجين القهوة، التي كان يشربها في المكتب أيّام الوظيفة، كم يجدها الآن جميلة، وكم كان يتذمّر منها؟ ليت تلك الأيام تعود؟!

في الأيام الأولى من الاستقالة أحس بالحرّيّة، ولكنه لم يلبث أن أحس أنه كالسمك وقد خرج من الماء. يخفق ويضرب ويتقافز ويضرب رأسه وذيله في الهواء، ولا يعرف كيف يعيش، يكاد يختنق.

وتمتدُّ إليه يد مديره عبد الجبّار بكتيّب يتناوله منه عفوياً، دون تردُّد أو سؤال، يدهشه الورق الفاخر والطباعة الأنيقة، يتصفّحه وهو

لا يكاد يعي شيئاً مما فيه، ثم يرسل عينيه إلى مديره متسائلاً. فيأتي الجواب موجزاً مع نفحة من عبق السيكار العطر:

"**شركة استثمارات خاصة، برأسمال ضخم كما ترى في الكتيب، تزودك الشركة شهرياً بضعف راتبك قبل الاستقالة، إذا وضعت فيها مبلغاً لا يزيد كثيراً على ما قبضت من تعويض**".

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

"**وهناك فرص للعمل في بعض محلات الشركة تساعد على زيادة الدخل الشهري، بالإضافة إلى نسبة الأرباح**".

وقبل أن يتكلّم، يتابع مديره الكلام:

"**استمتع الآن بشرب قهوتك، ولا تفكّر في شيء، في البيت اقرأ الكتيّب، وفكّر في الأمر بعد ذلك بهدوء، ونحن نرحّب بك في أيِّ وقت**".

ويضع السيكار في زاوية فمه. يدرك أن الزيارة قد انتهت، يرشف آخر قطرة من فنجانه، مستمرئاً نكهة البنّ، مستسلماً للعبق الفاخر، ثم ينهض.

يمدُّ يده إلى مديره، يعاوده شعور يوم مدّ إليه يده قبل عشرين عاماً، يوم تسلّمه عمه عنده في المديرية. المدير نفسه ينهض، يشدُّ على يده، يبتسم، ثم يهمس له في قوّة وحزم:

"**أتمنّى لك التوفيق**".

يخرج من باب المبنى وهو يمسك بيده كتيّب المدير، فيحتويه الشارع الصاخب بحركة السيارات والأضواء والناس. يقف هنيهة، يذكر الحوض الزجاجي للأسماك الذهبية، يتأمل المشهد مأخوذاً، ثم

يمضي، وفي داخله نشوة الإحساس بعظمة الشارع والمكتب، وروعة مقابلة المدير قبل استلام العمل.

***

الثلج.. وزجاجة العطر

استوقفه ابنه، رجاه ألا يخرج، البرد شديد، والريح جافّة، الثلج ينهمر غزيراً.

"**أبي، أنت لست بحاجة إلى النقود، خذ مني ضعف ما ستقبض**".

"**ليست القضيّة من أجل المال، يجب أن أخرج**".

"**أبي، أرجوك، نحن في الرابع من شهر شباط، وهو أكثر برداً من كانون الثاني، اخرج الشهر القادم، آذار دافئ**".

"**سأخرج كلّ شهر، في كلِّ فصول السنة**".

ارتدى معطفه السميك، لفّ حول رقبته لفّاعته الصوفيّة، فتح خزانته، تناول من الرفِّ العلويِّ شيئاً ملفوفاً بورقٍ فاخر، وضعه في جيب معطفه، وخرج.

البرد شديد حقيقةً، ارتعشت أوصاله، تجمّدت أنامله، أحسّ بأصابع قدميه قد ماتت، ولكنّه مضى، يده في جيبه، يشدُّ قبضته على تلك اللّفافة الصغيرة، يستمدُّ منها الدفء.

لا يمكنه ألا يخرج، ولا سيّما اليوم.

منذ عشرة أيّام، نزل إلى السوق، اشترى هديّة صغيرة، لفّها بورق فاخر، خبّأها في خزانته، وأخذ يعدُّ الأيّام، ينتظر الرابع من الشهر الجديد.

في الرابع من كلّ شهر، يغالب شيخوخته، ويمضي إلى المصرف، يصعد الدرج إلى الدور الثاني، ليقبض راتبه التقاعدي.

حاول ابنه إقناعه بإجراء وكالة خاصّة له، ليقبض الراتب بدلاً منه، ليوفّر عليه عناء الخروج من البيت، ولكنّه أبى.

لم يكن بحاجة إلى المال، ولكن...

في الرابع من كلِّ شهر، تستقبله تلك الموظّفة الشابّة، تدعوه إلى القعود في مكتبها، تقدّم له فنجان قهوة، تحدّثه عن همومها ومشكلاتها وأحزانها الصغيرة، يسرُّ لسماعها وهي تتحدّث، كأنّها عصفورة صغيرة تسقسق.

يخرج من مكتبها وهو مزودٌ بشحنة تكفيه طوال الشهر كلِّه، لا من المال، بل من الحنان والدفء والنعومة، يحسُّ بزهرة تتفتّح في داخله.

حين تسلّمه رزمة النقود، يجد لها طعماً مختلفاً، تناوله إياها بأناملها الناعمة، فيأخذها بكلتا يديه الراعشتين، ويأبى إلا أن يمسح على يدها براحة يده.

وطوال الطريق إلى البيت، يده في جيبه، قبضته الواهنة مشدودة على النقود، يحسُّ أن لديه شيئاً يمتلكه، لا المال، وإنَّما هو شيء من يدها الناعمة، منها، من عطائها.

ويصل إلى البيت، يفرد النقود، يعدُّها، يتلمّس فيها أناملها وعطرها وروحها.

في الرابع من كل شهر تمنحه هذا السكب، هذا العطاء، يمضي إليها فارغ الجيب، فارغ القلب، ويرجع وقد امتلأ.

وهذا اليوم سيمضي إليها، ويده في جيبه، قبضته مشدودة على هديّة صغيرة.

وهذا اليوم، يريد له ابنه ألا يخرج، لا، لا بد من أن يخرج، ولو كان ارتفاع الثلج في الطريق أمتاراً أمتارا.

ينْزل من سيارة الأجرة.

الناس يتراكضون تحت الثلج المنهمر.

تتراكم ندف الثلج على لفّاعته، على كتفيه، الثلج أبيض كالشيب، البرد قارس كأطراف شيخ متجمِّد، الكلّ يرتعش كالعجائز.

يمرُّ أمام بائع شطائر، تنفحه رائحة الجبن الساخن والشاي العطر، يقرّر أن يتناول شطيرة بعد خروجه من المصرف.

يصعد الدرج بهدوء، يده في جيبه، يشدّ قبضته على الهديّة الصغيرة.

يدفع باب المصرف، يدخل.

يراها أمام مكتبها، وهي تحدّث شيخاً عجوزاً، في مثل عمره، يدها في يده، وهي تضاحكه.

يقف، قبضة يده ترتخي عن الهديّة الصغيرة، تسقط في قاع جيب المعطف، يحسُّ بماء ساخن، بل بزيت مغليّ، قد صُبَّ فوقه.

تودّع الشيخ العجوز، تدخل إلى مكتبها.

يمسح العرق عن جبينه، يرفع اللفاعة عن عنقه، يفكّ أزرار معطفه، ويمضي إلى مكتبها، يمشي الهوينى.

يقرع باب المكتب، ويدخل.

تستقبله كعادتها بابتسامتها التي كان يراها دائماً مشرقة كشمس الربيع، ولكن لا يعرف لِماذا يراها الآن كشمسٍ محتجبةٍ وراء غمام متلبّد.

وتتنبّه إلى أنّه ما يزال واقفاً، فتدعوه إلى القعود، فيرد:

"**اعذريني، أنا مستعجل اليوم قليلاً**".

وتمدّ إليه يدها برزمة النقود، فيتناول الرزمة بأصابعه الراعشة، ثم يلقي بها في جيب معطفه، وهو يغمغم:

"**شكراً**".

ويهم بالمضيِّ نحو الباب، فتنهض إليه، تسأله مدهوشة:

"**لم تشرب القهوة؟!**".

"**أشكرك**".

"**لستَ كعادتك، أرجو..**".

"**الحقيقة كنت مسروراً جدّاً منذ خروجي من البيت، على الرغم من البرد الشديد، ولكن فور دخول المصرف تعكّر مزاجي، أحسست كأنّ ريحاً صحراويّة تهبُّ عليّ**".

"**ما الذي أزعجك؟**".

"**لا شيء**".

"**لعلّ الدفء الزائد داخل المصرف قد أزعجك؟!**".

"**لا أظنّ ذلك**".

ويخطو خارج المكتب، فتخرج في إثره، تهمس له:

"**لو عرفت منْزلك، لحملت إليك الراتب بنفسي، ليتك لم تخرج في هذا البرد الشديد**".

يقف، يلتفت إليها، ينظر في عينيها.

يضع يده في جيبه، تصطدم أصابعه الراعشة برزمة النقود، يحسّ أنه بحاجة إلى لمسة من يدها، لا إلى تلك النقود التي لا يعرف كيف سينفقها.

يودّ لو يرجع إلى مكتبها ليتسلّم منها النقود ثانية، فيلمس يدها، لو يرجع ليرشف فنجان قهوة ويشرب من صوتها.

ولكنّه يجد نفسه يسألها:

"**من ذلك العجوز الذي خرجت لوداعه منذ قليل؟**".

"**آه، ذلك العجوز، هو متقاعد مثلك، جاء ليقبض راتبه التقاعدي**".

كأنني كنت أظن نفسي الوحيد الذي يحظى بمزاحك ورشاقتك، وحديثك المرح، كنت أظن... يا لبلاهتي، حقيقة، لقد خرفت، هي الشيخوخة من غير شك.

وتردُّ شعرها إلى الوراء، وتتابع حديثها بعفوية:

"**كان لي جد، لعلّي حدّثتك عنه، وكنت أحبّه كثيراً، كان يروي لي حكايات كثيرة، كان يخصني باهتمامه دون سائر إخوتي وأخواتي، وذات يوم، ذهبت في رحلة مدرسية، ورجعت في المساء، فلم أجد جدّي، في صباح اليوم التالي أخذوني إلى قبره، لأضع عليه باقة زهر**".

وتصمت هنيهة، تطرق، تمسح دمعة، ثم ترفع رأسها، وهي تبتسم، وتقول:

"**لذلك أنا أحب العجائز**".

وينتابه سعالٌ حادّ، يلفّ اللفاعة حول عنقه، يشدّ عليه معطفه، ويهم بمغادرة المصرف، فتمسك ذراعه، وتقول له:

"**أرجوك، اعتمد عليّ**".

"**أشكرك**".

وأمام الباب الخارجي يتوقف قليلا، فتقول له:

"**سأنزل معك، سأوصلك إلى المنزل، اعتبرني مثل ابنتك**".

يلتفت إليها، يرى تألّق عينيها، يهمس لها:

"**أنا بخير، اطمئني**".

ويمدّ إليها يده بالهديّة الصغيرة، وهو يقول لها:

"**هديّة صغيرة، زجاجة عطر، أرجو أن تقبليها، واعتبرني مثل جدّك**".

تأخذ يده بين يديها، تضغط على عروق يده النافرة، ترمش له بعينيها، وتبتسم.

***

على الرصيف، تحت الثلج المنهمر، يقف، ينتظر سيارة أجرة.

هل يمضي إلى المحامي ليجري وكالة خاصّة لابنه كي يقبض بدلاً منه الراتب التقاعدي؟

الثلج يتراكم على لفّاعته، على كتفيه.

سيارة أجرة تقترب منه.

رائحة الجبن المسخّن تنشعه، توقظ فيه الدفء، تدعوه.

يولي ظهره إلى الشارع، ويمضي باتجاه بائع الشطائر.

وهو مقبل على المحل، يرى صورته المنعكسة على الواجهة الزجاجية.

اللفاعة حول رقبته، والمعطف الطويل يلفّه، والثلج يغطي كتفيه. وفي الداخل شباب، ليس فيهم من يلف لفّاعة حول عنقه، أو يرتدي مثل ذلك المعطف الطويل، وهم يقضمون الشطائر بنهم.

تتردّد خطاه، تتعثّر.

ويدخل المحل، وهو ينفض عن كتفيه الثلج.

***

في الشهر القادم، سيهل ربيع آخر.

***

غلاف علبة التبغ

أمام دكان "أبو عادل "وقف، حيّاه، مدّ إليه يده بالليرة، كعادته كلّ يوم، وهو آيب إلى بيته، عصراً، وقال له:

"**هات الزوّادة**".

ومدّ إليه "أبو عادل "يده بعلبة تبغه المعهودة "الريف"، فتح عينيه جيّداً، تأمّلها، أخذ يلف ويدور حول يد "أبو عادل"، الممتدّة إليه، وهو ينظر إلى علبة التبغ، من غير أن يتناولها منه.

"**هذه ليست علبة تبغي**".

هكذا قال بعد طول تأمّل، فأجابه أبو عادل:

"**هذه هي، والله**".

"**ولكن هذه لونها أصفر؟!**".

"**هذا غلاف جديد**".

"**لا، أعطني علبة غلافها أخضر، كالعادة**".

وردّ عليه أبو عادل:

"**ما بقي عندي يا أبو أحمد، اليوم ذهبت إلى الموزّع، وأعطاني حصّتي من التبغ، كل علب** "الريف" **عنده صفراء اللون**".

"**لا، لا يمكن، إذا غيّرت تبغي فسوف اسعل، أنا أخاف على صدري**".

وتردّد برهة، ثم أضاف:

"**اعذرني، سأمرّ في طريقي بدكّان أبو قاسم، لعلي أجد عنده علبة خضراء**".

ومضى يجر خطاه المتعبة، وقد أثقلتها السبعون، وزادتها الحياة ثقلاً وتعباً.

"أبو قاسم "لا أحبه، ولا أشتري من دكّانه شيئاً، حتى إنّني أمرّ به أحياناً ولا أحييه، لا أعرف لماذا، هكذا المحبّة من الله، أنا لا أحبّه، ولكنّني اليوم مضطرٌّ، لعن الله التبغ ولعن ساعة اكتشافه، من أجل علبة ريف خضراء، سأشتري منه.

وأمام دكّان "أبو القاسم " وقف، حيّاه، ثم سأله:

"**هل أخذت اليوم حصّتك من التبغ؟**".

"**لا**".

وأشرقت البهجة في قلبه، ومد إليه يده بالليرة، ثم قال:

"**هات، ناولني علبة ريف**".

ومدّ إليه "أبو القاسم "يده بعلبة ريف خضراء، التمتعت أمام عينيه، تألقت، سرى الفرح في عروقه، تحلّب ريقه لسيكارة، تلقّف العلبة من يده كالظامئ، فضّ العلبة، استلّ سيكارة، رشقها بين شفتيه، أشعلها، وأخذ يمصُّ الدخان.

وهمّ بمغادرة الدكّان، ولكنّه تنبّه إلى فكرة، التفت إلى "أبو القاسم "وقال له:

"**هات، أعطني أربع علب أخرى**".

وأخذ يبحث في جيب سرواله عن أربع ليرات.

وناوله "أبو قاسم " ثلاث علب، وهو يقول:

"**سامحني، لم أجد عندي سوى هذه العلب الثلاث**".

تلقّفها منه بسرور، وهمّ بالمضيّ، ولكن "أبو القاسم " استوقفه بتعليقه وهو يقول:

"**ولكن أعرفك تشتري كل يوم علبة واحدة من دكّان أبو عادل، ونادراً ما تشتري من دكّاني؟**".

ويرد أبو أحمد:

"**ما عدت أشتري تبغي من دكان "أبو عادل"، علب الريف عندها كلها صفراء. يا أبو القاسم، الله يرضى عليك، إذا تسلّمت غداً حصّتك من التبغ، فاحتفظ لي بعشر علب**".

"**وإذا كانت حصّتي صفراء اللون، ماذا أفعل؟**".

"**لا، أنت شاطر، ويمكنك الحصول على علب خضراء. الله يرضى عليك**".

ومضى إلى البيت، وهو بين القلِق والمطمئن.

إذا نفدت هذه العلب الأربع، ماذا سأفعل؟ في ثلاثة أيّام أو أربعة ستنفد، والله صدري سيمزّقه الدخان الجديد، ولكن على كل حال، إلى يوم أو يومين قد يعود المعمل إلى صنع علب خضراء، ربّما كانت العلبة الجديدة مؤقّتة.

ومرّ اليوم الرابع، ونفدت العلب، وأخذ يلوب من دكّان إلى دكّان، يسال هذا وذاك:

"**هل وزّعوا علب ريف خضراء؟**".

ويأتيه الجواب بالنفي.

ويقرع الباب على جاره "أبو حسّان"، ويبادره قائلاً:

"يا أبو حسّان، أنت تسافر كل يوم إلى القرية، وتحضر اللبن والبيض، الله يرى عليك، اسأل لي في القرية هناك عن علب ريف خضراء، إذا عثرت فأرجو أن تشتري لي عشر علب، عشرين".

ويمدُّ إليه يده بعشر ليرات، ويجيبه أبو حسان، وهو يرفض أن يأخذ منه شيئاً:

"بأمرك يا أبو أحمد، سأشتري لك ألف علبة".

ويقرع عليه أبو حسان الباب مساءً، فيهرع إليه مستبشراً، ويسأله:

"هيه، خبِّرني، كم علبة اشتريت؟".

ويأتيه الجواب:

"للأسف، ولا علبة".

وينصح له أبو حسّان بالاستغناء عن التبغ، فيرد:

"استغنيت عن الزوجة والأولاد، منذ عشرين سنة زوجتي ماتت، والأولاد تزوّجوا، وراح كلٌّ في حال سبيله، حتى أصحابي استغنت عنهم، إلا هذه السيكارة، بنت الحرام، ما قدرت على الاستغناء عنها، ماذا أفعل؟".

ومضى إلى دكّان "أبو القاسم"، واشترى علبة تبغ، ذات غلاف أصفر، فتحها على مهل، استل سيكارة، وضعها بين شفتيه، أشعلها ببطء، امتصّ الدخان وهو متذمّر، ضجر، ورجع إلى البيت.

وبينما هو يجرّ خطاه الثقيلة، لمح علبة تبغ خضراء اللون، مقالة على بلاط الزقاق، هجم عليها، التقطها، كأنّما عثر على كنز، نظر فيها، فإذا هي فارغة.

هم بإلقائها، ولكنّ فكرة طرأت على باله، خبّأها في جيبه، وحثّ خطاه، وفور وصوله إلى البيت، مزّق غلاف العلبة الصفراء، أفرغ منها السكائر، وأخذ يملأ بها العلبة الخضراء.

ماذا نفعل؟ لا بأس بها، ولو كانت علبة فارغة، يكفي أنّها خضراء، كل يوم تملؤها بسكائر جديدة، وإلى أن تتلف لا بد أن يأتي الفرج، إما أن يعود المعمل إلى صنع علب خضراء، وإمّا أن يوافينا الأجل.

واستلّ منها سيكارة، أشعلها، ثم بحرص شديد خبّأ العلبة الخضراء في جيب سرواله، وأخذ ينفث الدخان بهدوء واطمئنان.

***

مشروع قصيدة...

بعد تسع ساعات من النوم العميق في غرفته الداخلية المعتمة، خرج من الباب الضيّق إلى الشرفة الواسعة، ملأ رئتين بهواء الدنيا، استقبل العالم، أحسّ كأنّه يسبح في الكون تحسّس الأشياء من حوله، فتح عينيه للنور، شعر كأنه اكتسب حياةً جديدة، فجأةً انتابه بكاء، لم يعرف سرّه.

دخل الحمّام، أزال ما علق بجسده من عرق النوم، ارتدى ثياباً جديدة، أعدّ كأس حليب، حمله إلى الشرفة، قعد يرتشفه بهدوء، وهو يتأمّل شروق الشمس، ودبيب الحياة وصخبها، وهو يطلُّ عليها من الدور السابع.

نظر إلى أسفل، فرأى الأطفال يلعبون الكرة، تمنّى لو ينزل ليلعب معهم، ولكن سرعان ما نظر إلى أعلى، فرأى السماء والغيوم المذهّبة بشمس الصباح، وطيوراً محلّقة، ونفتحه نسمة نديّة، فشعر ببهاء الكون وعظمته.

تذكّر الوظيفة، أسرع إلى مكتبه، قعد وراء طاولته مثل تلميذ، وأخذ يحضّر التقرير، يجب أن ينجزه على أحسن وجه، ليحظى بالقبول، أحسّ بصعوبة الكتابة، وكأنّه طفل يتعلّم الأبجدية، أعاد الصياغة، جوّد خطّه، ملأ سلة المهملات بالأوراق الممزّقة، راجع الصيغة الأخيرة، أحس ببعض الرضا، لا بد أن يخرج من غرفة المدير متوّجاً بالتفوّق والامتياز.

رجع إلى الشرفة، تلقّى نسمات جديدة، فقد علت الشمس، وملأت أشعّتها الأسطح، تفتّحت في العمارات أمامه وحوله نوافذ كثيرة،

وأزيحت ستائر، حانت منه نظرة إلى شرفة مقابلة، فرأى وجهاً مدوّراً، لصبيّة حسناء، رشيقة القوام، وهي ترشّ الماء على أصيص زهر، ثم تحنو على زهرة، فتشمّها.

وباندفاعة غير مقصودة ناداها، فالتفتت إليه، لوّح لها بيده، فردّت شعرها إلى وراء بحركة رشيقة، ثم غابت في الداخل، انتابته موجة من الحنين والابتهاج والرغبة.

أحسّ كأنّه طائر يحلّق في غابة بعيدة، تحمله نسمات ناعمة، فتهتزّ الأغصان، وتتمايل الأوراق، وتغرّد الجداول، ويضوع عبق الورد، شعر بميل جارف إلى كتابة قصيدة، كلماتها تتوارد على ذهنه، تترى، بات يرى مطلعها منسوجاً في صفحة خياله، وقد سطّر بحرف من شذى، تتعانق فيها بهجة الوجه النقيّ المدوّر، مع بهاء السماء المتألّقة بالنور. لكنّ رنين جرس الباب بدّد الحرف، وأضاع الملامح، من يقرع عليه الباب في مطلع النهار المتألّق بهاءً وصفاءً؟ أي تكدير؟ أي طارق؟

يفجؤه أمام الباب وجه مصبوغ وشفتان مكتنزتان وصدر مقتحم لامرأة خبيرة، تعرض عليه أباريق وصحوناً من زجاج رخيص ملوّن، وبضع حاجات للمطبخ، ويهم بدعوتها إلى الداخل ليأخذ منها شيئاً، ولكنه يذكر مشروع القصيدة، ويفيض في روحه ألق الوجه النقي، ويغمره بهاء السماء العظيمة، فيعتذر، ويصرفها بسلام.

ويؤوب إلى مكتبه، يقعد وراء طاولته، يستلّ بعض الأوراق، ويشرع في كتابة مطلع القصيدة.

لكنّ دقّات ساعة الجدار تغلب همس الكلمات، ويضطر إلى النهوض، فيرتدي معطفه، ويحمل تقريره، يلقي على الشرفة نظرة، يتزوّد من الألق والبهاء، ثم يمضي هابطاً على الدرج الغائص في العتمة، حتى يبلغ الشارع، فيدخل في الزحام، وسط الضجيج والغباء ونداء الباعة، وسخام عوادم السيارات.

وهو ماضٍ على الرصيف، يلمح طفلاً يهمُّ بقطع الشارع على غير هدى، وتكاد سيارة عابرة تخطفه، فيسرع إليه، ينتشله من بين نسيج السيارات المتلاطمة، ويعدو به إلى الرصيف الآخر، وهو غير مصدِّقٍ أنه نجا.

وعلى الزاوية، أمام المديرية، يرى قعيداً يمدُّ يداً يستجدي الناس، فيحسُّ بنصالٍ تغوص في أعماقه، فيستل من حافظته نقوداً، ومن غير أن ينظر إليها، يضعها في يد السائل ويمضي.

يخطو داخ المديرية خطوته الأولى، وهو يشعر بالرضا والانشراح، يعرج على الديوان، يحيِّي الموظّف المختص، يسلّمه التقرير، ثم يمضي إلى مكتبه، وهو يمرُّ في أبهاء فخمة، يستشعر من خلالها البهاء والقدسية والعظمة.

يدخل مكتبه، يلقي على زملائه تحيّة الصباح، ثم يشاركهم ارتشاف القهوة وتبادل الأحاديث، يطالع جريدته، يقرأ أسعار الذهب والعملات، ثم يشرع في عمله.

يراجع الملفّات، ويدقّق في الأوراق، ويصادق على التوقيعات، منهمكاً في عمله، يحسُّ بإيقاع داخلي جميل، ويرى انبساط السماء،

وتفتُّح الأنوار، وانثيال الشذى، فينتشي بفيضٍ من الألق المفاجئ، يحسُّ بدافعٍ قويٍّ إلى الشروع في كتابة القصيدة.

ولكن صوتاً أجشَّ لمراجعٍ وقحٍ يبدِّد عالمه كلّه، ويخرجه عن طوره، ويضطر إلى رفع صوته والخصام، ويغيب عن الإيقاع.

مرة أخرى، وهو وراء مكتبه، في المديرية، تقتحمه بائعة هوايات سخيفة، وهي تحمل جوارب وميدالیات وهدايا وعطوراً رخيصة، تعرضها على زملائه، ثم تلحُّ عليه في العرض، وتهمس له، إن لم تعجبك هذه الحاجات ففي داخل غرفتي ببيتي حاجات أخرى ترضيك أكثر.

يغلي الدم في عروقه، يتوق إلى اقتحام المجهول وخوض الغمار، وتنقشع أمامه السماء المتفتّحة عن نور كالوردة العطرة، ويطل الوجه المدوّر النقي، فيشيح عن البائعة، ويدعو لها بالسلامة.

ويكبُّ على العمل، ينغمس فيه، يستنفد كثيراً من المداد وهو يضع الأختام والتوقيعات، ويستقبل مراجعين كثيرين، يحلُّ كثيراً من المشكلات، يفكُّ عقداً، يلغي عقوبات، يمنح أعطيات، يزيد في المكافآت، يذكر الوجه النقي والزهرة العطرة وشعاعات السماء، فيشعر مرة أخرى بنقاء الكون وبهائه، وتصدح في أعماقه موسيقا علويّة، ويدرك روعة الكون ونظامه، ويهمُّ بكتابة القصيدة.

ويرن جرس الهاتف، وإذا زوجته تخبره بوصولها للتو، والوقت ما يزال ضحًى، فيضطر إلى أخذ إجازة لساعة واحدة، ويمضي يقطع الطريق إليها عدواً، وكل قوى الرغبة والشباب تتفجّر فيه، يستوقفه صديق، يسأله عوناً، فيقدّم إليه بطاقةً باسمه، ويطلب منه إرفاقها

بملفه، ويعده أن يحدّث المدير في أمره، ثم يتابع مضيّه إلى زوجته، يرى إليها الأدراج، يصعد إلى الدور السابع، يقرع الباب، وتفتح له، تمنحه زهوراً بريّ نداها طلُّ الصباح البكر، يطوف بها أبهاء المنزل الذي أعدّه لها، وفرشه وجهّزه بكلِّ ما يقدر عليه، ثم يصبُّ لها رحيقاً صافياً في كاس من زجاج شفّاف نقي.

ويرجع إلى مكتبه في المديرية وهو يحسُّ بالغبطة والاكتئاب، فقد أرهقته الأقساط، وتكاثرت عليه الديون، للمنزل والأثاث والهدايا، ولا يجد من خلاص سوى الاستغراق في العمل، والغوص بين الملفّات.

ويرفع سمّاعة الهاتف، يكلّم المدير، يوصيه بالصديق، وفعلاً، يدخل عليه صديقه، وقد عيّنه المدير في مكتبه، فيسر به، ويقدِّمه إلى زملائه، ويطلب لهم جميعاً القهوة احتفاءً بصديقه، ثم يطلعه على تفاصيل العمل ودقائقه وخفاياه، لكنّ الصديق يؤكّد له أن البطاقة التي قدّمها إليه قد ضاعت منه، وأنه اضطرّ إلى الاستعانة بتوصية من موظّف كبير.

وبعد دقائق تصله ملفّات كثيرة، عليه تدقيقها والتوقيع عليها ثم إرسالها إلى التوثيق والحفظ، ويشرع كعادته في العمل بنشاط، ويمر به ملف صديقه، يقلّب أوراقه وإذا بطاقته علقت على طلب التعيين، ويقرأ حاشية المدير، وإذا فيها الموافقة على التعيين وفق توصيته.

قبيل الظهيرة تتصل به زوجته لتخبره بقدوم ولده، فيسر لذلك، ويبارك لها بسلامته، ويهديها الزهور والقبلات، ويرجوها أن تعنى به.

ويتقاطر عليه المراجعون، وتتراكم أمامه الملفّات، ويحس بظهره ينحني، وبصره يكلّ، ويرى في المرآة الشيب يغزو رأسه.

ويضطر وكيل المديرة إلى إجازة طويلة، فيكلّفه المدير بأعماله، فيجد نفسه وراء مكتب فخم، وأمامه عدّة أختام، وإلى جانبه ثلاثة هواتف، ويدخل عليه الآذن الخاص بفنجان قهوة متميّز، ثم تدخل عليه السكرتيرة تحمل البريد، فتغمره بعبقٍ من العطر والدفء.

ويدخل عليه صديقه، فيعانقه ويهنّئه ويبارك له، وينشر بين يديه كلمات التبجيل، ويقعد إلى جانبه يهمس له بكلمات، يزوّده بحقائق يجهلها عن زملائه وزميلاته وعن المدير وعن سائر المستخدمين، ثم ينصح له بصبغ شعره، ووضع نظّارة طبّيّة، وشدّ قامته، والاهتمام بمظهره.

ويرن جرس الهاتف، وإذا زوجته تهنّئه بقدوم ولده الثاني، فيفرح، ويهنّئها بالسلامة.

وقبل أن يضع السمّاعة، يرن جرس الهاتف الداخلي، وإذا المدير يدعوه إلى اجتماع عاجل، مع رؤساء الفروع، فيسمع أشكالاً من الثرثرة والمهاترات والاختلاف والتكتُّل والصدام والعرقلة والالتفاف، لا لغاية سوى الكسب الخاصّ.

يرجع إلى مكتبه مغتمّاً، لا يدري ما يفعل، يراجع بعض الملفّات، يتأمّل المكتب الفخم والخزانة الفاخرة، فيشعر بالزيف والسخف.

ويرن جرس الهاتف، وإذا زوجته تخبره بقدوم ابنته، فيفرح فرحاً حقيقياً، ويهنّئها بالسلامة.

مع نهاية الدوام، وهو يغادر المديرية، يفكّر في تقديم استقالته.

يمضي عبر الشارع، متهدّم الكتفين، ثقيل الخطا، كليل النظر، وقد هدّته الأعباء.

وهو على الرصيف تصيبه كرة يقذفها أولاد يلعبون، فيلعنهم في سرّه، ويمضي، وهو أشدُّ اكتئاباً.

على قارعة الطريق يرى متسوّلاً يمدُّ يداً مقطوعة، فيشيح عنها بوجهه، وهو لا يكاد يصدِّق أنّها مقطوعة حقيقة.

في الحمّام، والماء البارد ينسكب عليه رذاذاً، يندم على ما فات من عمره، ويتمنّى لو لم يعمل موظّفاً، أو على الأقل، لو لم يباشر عمله وكيلاً للمدير، يذكر القصيدة التي همّ بكتابتها في الصباح، ويأسف لأنه نسيها، يحاول استرجاع صورة الوجه النقي، والسماء المشرقة، ولكنّه يجد الصورة غائمة، بعيدة بعيدة، ويصمم على النطق ببعض الكلمات، لعلّها تشكّل مطلع القصيدة، ولكنّه عجز، ولا ينقذه سوى نقرات زوجته على باب الحمّام، وهي تناوله المناشف.

ويشارك زوجته وأولاده فرح نجاحهم، ويجلس معهم إلى المائدة، وينضمُّ إليهم خطيب ابنته، ويحسُّ بالبهجة، فقد كبر الأولاد، فيشعر في داخله بالهرم، ولكنّه يسلِّم للزمان، فتلك هي سنّة الحياة.

ويمضي إلى غرفته ليرتاح قلياً، ولكنّ جرس الهاتف يرن، وإذا صديقه يخبره بأنه كلِّف بالإدارة، وحين يسأله عن المدير، يؤكِّد له أنّه ظل يحفر له حتى تمكّن من الإيقاع به، فيصمت، ولا يجد ما يقوله، ويعتب عليه صديقه، إذ لم يسمع منه كلمة تهنئة.

يمضي إلى مكتبه، يخلو إلى نفسه، يرى الدنيا سوداء، يكاد يختنق، يقرِّر كتابة القصيدة، لعلّه ينسى، ولكنّه يعجز.

يرفع سمّاعة الهاتف، يتّصل بصديقه، يرجوه، بوصف المدير الجديد، أن يقبل استقالته من الوظيفة.

ثم يطلب من زوجته وابنته وولديه أن يجهّزوا أنفسهم لجولة مسائيّة في أسواق المدينة، للتسلية والترفيه عن النفس وشراء بعض الحاجات.

تحتويه والأسرةَ ضجّة الأسواق وصخب الباعة وضوضاء السيارات، تبهره اللافتات المضاءة الملوّنة، يشعر كأنّه يرى مدينته أوّل مرّة، يحسُّ بالحرّيّة والبهجة والانعتاق من الوظيفة والعمل، يسعد إذ يرى الفرحة تملأ أفراد أسرته، فيقرِّر دعوتهم إلى العشاء.

في المطعم تنفحه نسمات ناعمة، وهو يرى زوجته وابنته وولديه، وقد تحلّقوا حول المائدة، تتسرّب إلى أعماقه رائحة الشواء، وتداعب روحه نفحات عذبة، وهو يرى نافورة المياه، والرذاذ يتطاير منها عبر مهرجان الأضواء والألوان والموسيقا، يحسُّ كأنّه يحلّق في سماء من الصفاء.

وحين يأتي النادل بالحساب يمنحه عطاءً جزلاً.

في الطريق إلى البيت تقترح عليه زوجته أن يعمل في التجارة، يرى أحد ولديه توظيف تعويضه الوظيفي لدى أحد المستثمرين، تعترض البنت مقترحةً تفرُّغ أبيها للمطالعة والتأمُّل، وتقول حسبه ما عاناه في حياته.

اقتراح ابنته يشيع البهجة في نفسه، ويرى فيه، لو تحقّق، فرصةً مواتية لنظم القصيدة.

إشارة المرور تضيء لهم ليعبروا مع العابرين، والنشوة ما تزال ترفرف فوقهم، وتخطو الأم، وإذا سيارة مسرعة تدهمها.

أمام موت زوجته المفاجئ يحسُّ كمن يطلُّ على هوّة معتمة، يشعر بالفراغ والعدم والعبث، ينتابه يأس قاتل، يدرك أنّ العمر قد تقضّى من غير أن يحقِّق شيئاً.

يخرج إلى شرفته، وقد انتصف الليل، تحتويه ظلمة قاسية، روحه في داخله محتجبة، يرفع رأسه إلى فوق، فلا يرى السماء، ليس سوى عمارات شاهقة، نوافذها مضاءة بمصابيح خافتة، يتخيّل ما وراءها من متعة أو رفاهية، فيغلي الدم في عروقه، وينظر إلى أسفل، فيرى سيارة فارهة تتهادى، ونغم صاخب يتناثر من نوافذها.

يهبط على الدرج، أنفاسه تلهث، يندفع وكأنّ نوابضَ تحرِّك جسده، وروحه مختنقة.

يدخل مكتباً لتأجير سيارات، يتسلّم مفاتيح سيّارة.

يخرج، يقود السارة بسرعة كبيرة، يتمنّى لو يحطّم السيارة ويتحطّم بها، يودّ لو يدوس العشرات العشرات، يأسف لحياته، لم يفعل شيئاً، لم يقتل، لم يسرق، لم يرتش، يودّ فعل شيء.

يلمح رجلاً وامرأة خارجين من ملهى، من مطعم، من مدخل عمارة، لا يكاد يميّز، الرجل هو صديقه، المدير، ليس هو، بل يشبهه، لعلّه هو، يقف أمامه، يدعوه، الرجل يتردّد، يؤكّد له أنه لن يجد في مثل هذا الوقت المتأخِّر سيارة أجرة، يؤكّد له أنه جار طيّب، يؤكّد له أنه صديق قديم، ثم ينطلق به، وبالمرأة، يخترق شوارع المدينة.

هل يمضي بهما إلى خارج البلدة، يدخل بهما طريقاً ريفية، حتى إذا بلغ بهما الخلاء، أطفأ المحرّك بغتة، التفت إليهما، دعاهما إلى

مساعدته في دفع السيارة، حيلة قديمة تتجدّد، حتى إذا صارا وراء السيارة، اندفع بها إلى وراء، فيدوسهما كليهما.

وينعطف بهما إلى حيث أشار الرجل، وأمام عمارة متواضعة يقف، ويهبط الرجل، هل ينطلق الآن، يندفع بالسيارة ويفر بالمرأة إلى غابة، ويفترسها، ثم يقطِّعها إرباً إرباً؟

المرأة تشكره، الرجل يحيِّيه، يتركهما ثم يمضي إلى المكتب، ويردّ السيارة.

ويمضي، يجرُّ خطاه، يأكله الندم على ما فكّر فيه، التعب يهدّه، والحزن يكويه، والقهر يخنقه.

وينسرب إلى أعماقه نداء عذب، فيرفع وجهه إلى السماء، فيرى النجوم تتلألأ، فترفُّ روحه، وتشفُّ نفسه وتصفو.

ويسرع إلى المسجد ملبّياً النداء، يخلع حذاءه في الخارج، تاركاً كلّ ما علق به من غبار الرصيف والسيارة والوظيفة والحياة، يصب الماء على يديه، يغسل رسغيه، يغسل وجهه، يحسُّ بكل الأوضار تتساقط من ساعديه مع قطرات الماء، ثم يغسل قدميه.

وراء الإمام يصغي إلى الآيات، يشعر كأنّه يحلّق في عالم آخر غير ما فكّر فيه أو عرفه أو رآه، يحسُّ كأنّه ولد من جديد، اكتسب حياةً جديدة، فجأة تنتابه رغبة قويّة في البكاء، فيبكي.

في طريق العودة إلى البيت، يحس بالنقاء والصفاء، يستشعر جمال الكون وروعة نظامه وبهاءه، تلفحه ريح باردة، فتزداد روحه صفاءً وشفافية.

في مدخل البناء تصطكُّ ركبتاه، يرتعش، لا يقوى، تنزل إليه ابنته، يسرع إليه ولداه، ولكن لا جدوى، الجسم وهن، وخارت القوى، والعروق جفّت.

إلى القبو المحفور في الأسفل يحمله ولداه، ثم يخرجان. يبقى وحده، تحتويه عتمة لم يعرفها من قبل، ولكنّه يحسُّ بها غير مزعجة، بل حانية، وعلى الأرض الترابية وهو ممدّد فوقها، يستشعر الراحة الكبرى، وجهه إلى الجدار، تاركاً كلَّ شيء وراءه.

من داخل عينيه المغمضتين يرى نوراً فيه ألحان عذبة، ويلمس نداءً تتماوج فيه الأشذاء، فيطير محلِّقاً بروحه إلى منبع للأكوان والألوان والضياء، يرفّ بأجنحة من عبير صاف، مخلِّفاً جسداً كالعهن.

في الدور السابع يختلف الولدان على متاع المنزل، وعلى الأواني والزجاج وبعض الحاجات، تمضي إلى غرفة أبيها، تتأمّل صورته، تحسُّ شيئاً ما في نظرة العينين، تخرج إلى الشرفة، فتطلُّ على الكون والحياة والعالم، ومع نسمات الفجر الأولى وإشراقة الضياء ترى زهرةً بيضاء تتفتّح، فتحسُّ بدفق الحياة، وفي أعماق روحها تتخايل ملامح قصيدة.

***

لا أعرف

كل شيء أجرد كئيب باهت، لا لون له ولا طعم ولا رائحة، بل ولا معنى، وكأنّه غير موجود، ولكنّه موجود.

كل شيء ثقيل كريه ممجوج لزج.

الغبار يغطّي الرصيف، وأوراق صفراء تساقطت من شجرة نخرة، تحرِّكها زوبعة صغيرة تافهة، تحاول الطيران بها فلا تفلح، وغيمات باهتة متناثرة، تهيم في السماء تائهة، لا هي تغطّي الشمس فتحجبها، ولا هي تتركها فتفسح لها المجال لإرسال شعاعها، وقد وهن ومال إلى الشحوب.

ابنتي أمل تعدو أمامنا، تركض، تمرح، لا تعرف شيئاً، ولا تفهم.

المشكلة في أن تعرف وتفهم، وماذا سوف تفهم أو تعرف؟!

لا جدوى، فليس ثمّة شيء بعد لم تعرفه، استوت الأشياء وتشابهت وتكرّرت آلاف المرّات، فهي كلها شيء واحد، ثابت ساكن مكرور.

زوجتي إلى جانبي، تدفع عربةً صغيرة، ولدنا الثاني نائم فيها، كتلة من اللحم الأصم والأبكم، ينمو يكبر، يبتلع الأيام يوماً فيوماً، والأيام تبتلعنا.

زوجتي في ثوب أخضر داكن، مثل اعفن، حين يعلو رغيفاً منسيّاً من الخبز اليابس.

لم تطلب منّي زيارة أحد، ولا الخروج في نزهة، ولا شراء حاجة، ولكنّني دفعتها إلى ذلك دفعاً، لم أشأ الذهاب إلى الحديقة وحدي، قلت لها: "يجب أن نذهب معاً"، ولم تكن راغبة في الذهاب.

سنجلس على المقعد نفسه الذي جلسنا عليه يوم تعارفنا الأول، في ذلك الركن من الحديقة، أحاول استرجاع الجمل، الكلمات، ولكنّني لا أقدر، ما نسيتها قط، كانت دائماً في نفسي، ولكن لست أدري لماذا تبدو اليوم مثل خطّ عريض في جريدة قديمة جدّاً، علاها العفن، ونخرت فيها الأيام، تآكلت حروفها، ودخل بعضها في بعض، بفعل الرطوبة.

عند باب الحديقة عجوز شائخ، يمدّ يداً مقطوعة، يطلب صدقة، اليد مقطوعة من الرسغ، غاب عنها الكف، ظهر نتوء مزعج، يخيف، موضع انقطاع الرسغ يجتذب أنظاري، لا أرى سواه، مشوّه جدّاً، متعب، أتحسس يدي عند الرسغ.

تتعثّر خطواتي وأنا أدخل باب الحديقة، زوجتي تتقدّمني وهي تدفع العربة، ألحق بها، أعاتبها لأنها لم تنتبه إلى تعثُّري، تقابلني بصمت، لا تقول أي شيء.

أجل، ليس ثمة جواب، ليس ثمة شيء، لا كلمة ولا بوح ولا نجوى، كنا نثرثر ساعات وساعات حول أي شيء، ولكن الآن لا شيء.

خطواتنا تنقاد إلى المكان الذي كنّا قد التقينا عنده أول مرة، كأنّه ليس في العالم مكان آخر سواه، هو المكان الوحيد الذي نعرفه، ألفناه، مللناه، ولكن في كلِّ مرة نجيء إليه، ونقعد فيه، كل الأماكن الأخرى لا نعرفها، لا نحاول معرفتها، هنا نكرّر ذواتنا، ولا نجد شيئاً.

أمل تركض، تلعب، تنادي، تطير، تفعل كلّ شيء.

بسّام نائم، لا يبالي.

نحن لا نعرف، أنا لا أحس بشيء.

مقعدنا المألوف خال، نلقي أجسادنا عليه، نرخي أقدامنا، نمدُّها، حرارة في الجو، أو برودة، جو لا نعرف كيف هو، فاتر، متقلّب، مترجّح بين صيف وشتاء، لا معنى له، لا لون له.

ثمة مقعد أمامنا، فيه ثلاثة شيوخ عجائز، صامتون، لا يتكلّمون، أحدهم يسند ذراعه إلى عكّاز، الآخر ينظر في جريدة، الثالث ينظر إلى لا شيء، نظرة ساكنة ثابتة. أنف كبير أحمر متشقّق، فكٌّ عريض واسع، الجلد حوله متغضّن، عينان ذابلتان كابيتان، تهومان في نعاس أبدي، صلعة عارية تجعّد جلدها وتشقّق واحترق، أيد راعشة، قمصان وأردية ومعاطف سميكة تنتمي إلى عهد نوح.

ويمرُّ بنا غلام، يعرض علينا قطع حلوى، يغرينا بشرائها.

أذنا الغلام كبيرتان جدّاً، وأنفه مأكول، لا أعرف ماذا أكله، جرذ أو جراد أو كلب، ليس له سوى ثقبين في موضع الأنف، وزبد يسيل من طرف فمه المفتوح، ولسانه يتدلّى.

صحت به.

ضحك، وقف ينظر إلى زوجتي، يعرض عليها قطع الحلوى.

التفتُّ إلى زوجتي، رأيت بطنها المكوّرة المرتفعة.

ماذا لو وضعت بعد بضعة أشهر ولداً كهذا؟!

صحت به.

ما زال واقفا، أمل تنظر إليه مدهوشة.

أعطيته ليرة، مدّ إلينا قطعة الحلوى التي يحملها في صندوق، حمل بأصابعه قطعة الحلوى، قدّمها إلى زوجتي.

أصابعه محروقة، الجلد منسلخ، منكمش، متجعّد.

نفحتني رائحة كريهة، كريهة جدّاً.

نظرت، وإذا تحت المقعد قطّة ميتة، متفسّخة، أنيابها بارزة، فكُّها مفتوح، عيناها متآكلتان، ذيلها مقطوع، صورتها سيطرت عليّ، مع أنّي أدرت وجهي عنها فور رؤيتها، ونهضت.

التفتُّ ورائي، خشيت أن يكون الغلام قد لحق بنا.

ضجيج السيارات وفحيح أبواقها يعلو، يطغى، يزداد، لا أعرف لم ترسله بهذا الشكل، ثم يتسرّب في غماره عواء سيارة إسعاف، صوتها يقترب، يدنو، يقوى، يعلو، يطغى، ثم يبتعد شيئاً فشيئاً، حتى يغيب.

"**أمل**".

"**أين أمل؟**".

ألتفت أنا وأمّها، نناديها، نبحث عنها، لا نجد لها أثراً.

هل بقيت في المقعد، عند القطّة الميتة، هل أخذها الولد الأبله؟ اختطفها الرجال العجائز؟

أرجع إلى حيث كنّا عند المقعد، القطّة الميتة في مكانها، العجائز في مواضعهم، لا حركة ولا حس ولا نأمة؟!

"**أين أمل؟**".

وأنادي:

"**أمل، أمل، أمل**".

زوجتي تبكي، تصيح:

"**ضيّعنا البنت**".

الولد الأبله يرجع إليها، يعرض علينا قطع الحلوى.

وفجأة تبرز أمل، أصيح بها:

"**أين كنت؟**".

وتشير إلى شجيرات صغيرة، وهي تقول:

"**اختبأت هنا، كنت أريد مداعبتكم والمزاح معكم**".

ثم تعدو مرحة تضحك وتلعب.

ألتفت إلى الولد الأبله، أشتمه، أطلب منه الابتعاد عنها، أهم بضربه، ثم أقول لزوجتي:

"**هيا، سنعود إلى البيت**".

وتسألني:

"**لِماذا أنت اليوم قلِق؟!**".

وأجيبها:

"**لا أعرف**".

***

عريشة.. في شرفة ضيِّقة

يهب من قيلولة الظهيرة مذعوراً، العرق يغسله، يكاد يختنق، يحاول تناسي الكابوس، يفرك عينيه المثقلتين، ثم يمضي إلى المطبخ، يفتح البرّاد، ويشرب كأسا مثلجة.

يغسل وجهه ويديه، ينظر إلى وجهه في المرآة، يزداد مقته وضجره.

زوجته وراء المجلى، تغسل الصحون، يمرُّ بها عابراً المطبخ إلى الشرفة الصغيرة.

تسأله:

"**لماذا استيقظت قبل الأوان؟!**".

فيجيبها، وهو في الباب بين المطبخ والشرفة:

"**كابوس مزعج أيقظني**".

العصفور الحبيس ينقر قضبان القفص، ويقفز من جانب إلى جانب، مصدراً صيحات الضجر.

يقعد على كرسي صغير، وينظر إلى الشاعر من وراء القضبان الحديدية المثبتة على حافة الشرفة.

الناس متجمهرون حول شيء، دفعه الفضول، وجد نفسه أمام جرّة غاز على وشك الانفجار، الناس كلّهم ابتعدوا، الحلقة تتّسع، وهو وحجه قرب الجرّة، قدماه ورأسه ويداه، جسمه كله متصلّب، مثل قطعة خشب، لا يستطيع الحراك، والجرّة على وشك الانفجار.

لا بأس، هو كابوس، وليس واقعاً، ولكنّه مزعج.

لِماذا أحسّ بجسمه كلِّه متصلِّباً؟!

يلتفت إلى زوجه، يحدّثها عن الكابوس من موضعه في الشرفة، وهي في مكانها وراء المجلى، ثم يسألها:

"**ما تفسيرك للحلم، يا سناء؟**".

"**لا أعرف**".

"**كدت أختنق، هل هو مرض؟**".

"**اعرض نفسك على طبيب**".

يراها من خلال باب المطبخ المفتوح على الشرفة، وهي وراء المجلى.

ويحزّ في عروقه صوت مكابح الحافلة، وهي تقف عند الرصيف، لغط الركّاب يخنقه، وتنطلق الحافلة، فيزكمه دخان الوقود المحترق.

وتدخل عليه زوجته، تحمل له فنجان قهوة.

يضع الفنجان على حافّة الشرفة، ويسألها بلهفة:

"**أين فنجانك؟**".

"**الشرفة لا تتّسع لكرسيٍّ آخر**".

"**هاتي فنجانك، واقعدي هنا، بين باب المطبخ والشرفة**".

"**سأشربه هناك في المطبخ، وأنا أغسل الصحون**".

وترجع إلى المطبخ، وهي تتجنّب نظراته.

تغيرتِ يا سناء، حتى صوتك تغيّر، زالت ملامح تدلّهتُ بها حبّا أيّام الشباب، وظلت تكبر مع الأيام، زادتها سنوات الفقر والقهر والحرمان كبراً على كبر.

وترتدّ أنظاره عنها إلى الحوض الصغير لشجرة الياسمين.

التراب في الحوض متشقّق متيبّس، وجذع الشجيرة ينهض أعجف مائلاً، يتابعه ببصره إلى فوق، يلاحظ نحوله، الأغصان الصغيرة الناعمة تسترخي بكسلٍ فوق خيوط ضعيفة، تمتدّ في فضاء الشرفة الضيّقة.

والعصفور ينقر في قضبان القفص، ضجراً، ولا يرسل شيئاً من نداء.

يلتفت إليها ثانية، يرفع صوتها، يناديها، سائلاً:

"**متى سقيت شجرة الياسمين؟**".

ويأتيه صوتها رخواً ممطوطاً:

"**أمس، في الصباح**".

ويعلّق:

"**كأنها لم تشرب منذ أسبوع**".

ويرن جرس الباب، يرنو ببصره إلى الداخل، يخفق قلبه لعودة رجاء، تمرُّ دقائق ولا أحد يظهر، يسأل:

"**هل جاءت رجاء؟**".

"**لا، الجارة جاءت، تطلب قليلاً من البهار**".

"**وهل أعطيتها؟**".

"**لا**".

وتدخل عليه الشرفة، وهي تضيف، بحدّة وعناد:

"**وكيف أعطيها؟ منذ يومين طلبت منها استخدام هاتفها، فقالت إن الخط معطّل**".

"**ولكن..**".

"**لا، لا تقل أي شيء، لا فائدة، خمس نوات ونحن في الدار، وهي لا تزورنا إلا لطلب حاجة**".

يصمت، ينظر إلى التراب المتشقّق في الحوض، ثم يتكلّم:

"**نسيت السيكارة**".

"**هذا أفضل، يجب تركها نهائياً**".

يعلّق وهو يرشف القهوة:

"**بعد الخمسين لا ينفع أي شيء، حتى لو تركت السيكارة والشاي والقهوة، لا فائدة**".

زعقة مكابح تستفزّه، فينظر إلى الشارع، ثم يردّ طرفه، ويعلّق ضجراً:

"**لا بدّ في كلِّ يوم من حادث أو اثنين**".

وترد بهدوء، وهي عائدة إلى موضعها في المطبخ:

"**ألفنا ذلك، حتى صرنا نملُّ من دونه**".

مرة أخرى يرسل نظره إلى التراب المتشقّق، والجذع الناحل، ثم يرفع رأسه إلى القفص.

العصفور هامد فوق قضيب صغير، لوى رأسه تحت الجناح، غطّاه به، ونام، قبل أوان النوم.

يضع الفنجان على حافّة الشرفة، وينهض، يمشي إلى المطبخ، يملأ دورقاً بالماء.

من دار إلى دار حملتها، نقلتها حيثما تنقّلت، شجرة ياسمين باسقة كانت يوم اقتلعتها من الحوض الواسع العميق في دار جدّك الكبيرة ذات الفناء الفسيح، وكل مساء تهمي تلالاً من الياسمين

الأبيض الفوّاح، يسطع شذاه المتألّق في كل الأرجاء، تحمله وأنت طفل، في صحون بلّوريّة شفّافة، هدايا إلى كل الجيران. الدور المغلقة خنقتها، حيث لا نور ولا هواء، حتى ذوت، وكادت تموت. في ظلِّها لعبتَ مع سناء بالريشة الطائرة، وأنتما طفلان، فوق وجهيكما همت زهورها البيضاء الناعمة. ابنة جيران الأمس هي زوجة اليوم، وطفل الأمس يتجاوز الخمسين.

ويدخل الشرفة، حاملاً الدورق مملوءاً.

وتسقط على حافّة الشرفة بقيّة من سيكارة، تسقط من فوق، يتناثر منها الشرر، ثم ترتمي على أرض الشرفة.

يرفع رأسه، تطالعه من خلال الغصون الناحلة لشجرة الياسمين شرفاتٌ بعضها فوق بعض، صغيرة، ضيّقة، مختنقة.

ما كنت تعرف أن دار جدّك ليست ملكاً، وأنّها دار أجرة، وحين عرفت، لم يختلف الأمر. كان حسبك أن تلعب في فنائها الواسع، تحت عريشة الياسمين، وجدّك ما يفتأ كل يوم يضيف إلى أحواضها زهوراً جديدة، يغرس هذه، ويقلّم أغصان تلك.

من دار أجرة إلى دار أجرة، العمر ضاع، ثم كان الاستقرار هنا، في دار ملك، أو بالأحرى في دار ستمتلكها بعد خمس سنوات، مرّت خمس سنوات، وبقيت خمس سنوات أخرى، وتنتهي أقساط الدار، وعندئذ تمتلك داراً من غرفتين ومطبخ وشرفة ضيّقة، تمتلكها وأنت مشرف على الستّين، وعندئذ تكون رجاء قد تخرّجت من الجامعة، وبلغت الخامسة والعشرين.

هل تعيش شجرة الياسمين خمس سنوات أخرى؟!

وماذا بعد؟ هل يمكن بيعها وشراء دار أخرى؟ وماذا تشتري؟ هل يمكنك حقّاً شراء دار فيها شرفة حقيقيّة، ليست كهذه الشرفة؟!

ويحسُّ بحنجرته متيبّسة، يهم بالكلام، لكنّه يكاد يختنق، قدماه، رأسه، ذراعاه، جسده كلّه متصلّب، مثل قطعة خشب، والدورق المملوء يكاد يسقط من بين يديه.

ويسمع وسوسة ناعمة، يلتفت، وإذا رجاء وراءه.

"**أهلاً رجاء، كيف الجامعة والمواصلات؟**".

"**اعتدت على العودة إلى البيت ماشية**".

تنظر إلى الدورق، تمد يديها إليه، قائلة:

"**هات يا أبي، أنا سأسقي شجرة الياسمين**".

ويناولها الدورق.

تصبُّ الماء حول الجذع بلطف، التراب المتشقّق يشرب الماء، ينتشي، ذرّاته العطشى توسوس وهي تتشرّب الماء.

تعيد الدورق الفارق إلى المطبخ، ترجع إلى الشرفة وهي تحمل حقيبة يدها، تفتحها، تستلُّ منها مغلّفاً، تناوله إلى أبيها قائلةً:

"**تفضل يا أبي، وأنا داخلة إلى البناء، صادفني جارنا أبو جميل، فأعطاني هذا المغلَّف**".

"**شكراً لك يا رجاء، هذا راتبي التقاعدي، وعدني جارنا أبو جميل أن يحضر لي الراتب إلى البيت كل شهر، لأوفّر عناء الذهاب إلى المصرف، فهو موظّف هناك، هل دعوتِه إلى زيارتنا يا رجاء؟**".

"**بالطبع يا أبي، وقد ألححت عليه، ولكنّه وعد بالزيارة في وقت آخر**".

يلتفت إلى المطبخ، يرمق زوجته، فتتجنّب نظراته.

ما كنت هكذا من قبل يا سناء، كانت الجارات مثل الأخوات لك، كنت كريمةً معطاءً، واليوم لا أعرف لماذا تغيّرتِ؟

إيه، كل شيء تغيّر، شجرة الياسمين، وسناء، حتّى أنا، أحال على التقاعد، وأعاني من ارتفاع الضغط.

رجاء في الشرفة أمام القفص، وتخرج من حقيبة يدها قطعة حلوى صغيرة، تفضُّ عنها الورقة الملفوفة بها، ثم تثبّتها بين قضبان القفص.

العصفور ينتفض، يصحو، يسرع إلى قطعة الحلوى، ينقرها.

"**رجاء، خذي بعض البهار إلى جارتنا، اعتذري لها، أمّك بخلت عليها، لم تعطها شيئاً منه، قولي لها، لا أعرف ماذا يمكن أن تقولي، لا تقولي أي شيء، فقط أعطيها البهار**".

وترد رجاء:

"**حاضر يا أبي**".

وتمضي إلى المطبخ، لكنّه يناديها:

"**تعالي يا رجاء، انظري**".

وتلتفت إليه مدهوشة:

"**ما هذا يا بابا؟**".

"**انظري هنا يا رجاء، انظري إلى هذا الغصن الناحل في شجرة الياسمين، لقد تفتّحت فيه زهرة**".

وترفع رأسها على شجرة الياسمين، وهي تقول:

"**هل تسمح لي بقطفها يا أبي؟**".

"**هي لك يا رجاء**".

أناملها الناعمة تمتدّ بحنان إلى الزهرة، تقطفها بلطف، ثم تلتفت إلى أمّها، تناديها:

"**تعالي يا أمي، سأضع هذه الياسمينة في شعرك لأجل أبي**".

وتجيبها الأم:

"**زهرة، زهرة واحدة؟! آه لو رأيت أمّك يا بنتي، في دار جدّك القديمة، وهي تجمع أكوام الياسمين، تصنع منها عقوداً عقوداً**".

ويعلق الأب:

"**كنت أتمنى امتلاء فضاء الشرفة بأغصانها، ثم امتدادها إلى الشارع، لتنهمر زهراتها على الناس كلِّهم، ولكن**".

ويرسل زفرة طويلة، فتضيف رجاء:

"**على كلِّ حال، زهرة واحدة خير من لا شيء**".

ثم تأبى إلا أن تضع الزهرة في شعر أمِّها، فوق أذنها اليسرى.

وتناولها أمّها وريقة ملفوفة، وهي تقول لها:

"**خذي هذا البهار إلى جارتنا**".

وتهبُّ نسيمات صيفية ناعمة، فتتحرّك الأغصان الناحلة لشجرة الياسمين، ويرسل العصفور شيئاً من التغريد.

***

المحتوى

كيف لي أن أراك؟	٣
عريشة الياسمين	٨
بديعة	٢١
أم خالد والكناري	٣٤
الليرة وبائع المثلّجات	٤٧
أفرح إذ تجيء	٥١
الشاعر والفراشة	٥٦
الهرب من الحبّ	٦٥
عفاف	٧٢
الموظّف الصغير	٨٢
القطار والسمكة الذهبية	٩٠
الضرس الثاني	١٠١
الفرصة الأخيرة	١١٢
من سيقرأ تلك الرواية؟	١٢٢
المقابلة الجديدة	١٣٣
الثلج وزجاجة العطر	١٤٣
غلاف علبة التبغ	١٥٠
مشروع قصيدة	١٥٥
لا أعرف	١٦٦
عريشة في شرفة ضيّقة	١٧١